

اقرأ

عباس محمود العقاد

شاعر الغزل

دار المعارف بمطرب

شاعر الغزل

عباس محمود العقاد

شاعر الغزل

عمر بن أبي ربيعة

٢ اقرأ

دار المعارف بمصر

اقراً ٢ - فبراير ١٩٤٣

الطبعة الثانية يولية ١٩٥٥

الطبعة الثالثة سبتمبر ١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر: دارالمعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م. ٠٢

الشاعر ونشأته

اتفق لي أن أخرج كتاباً عن عمر بن الخطاب ، وكتاباً عن عمر بن أبي ربيعة في فترة واحدة ، ولم يكن ذلك عن قصد مرسوم ولا عن محض مصادفة ، ولكنه كان مزيجاً من القصد والمصادفة ، ووسطاً بين الاختيار والاتفاق السدي يأتي على غير انتظار

فقد دُعيت منذ أكثر من سنة إلى الكتابة عن عمر بن أبي ربيعة بين مشاهير الأدب العربي والتاريخ الإسلامي اللذين اتجهت النية حيناً إلى ضم سيرهم وتواريخهم في مجلد واحد . فشرعت في دراسة الشاعر وتحضير سيرته ونقله حتى لم يبق منها غير الكتابة ، ثم أرجأتها إلى موعدھا المقدر حين وقف العمل في كتاب أولئك المشاهير

وحدث أنني كتبت « عبقرية محمد » واستلحق هذا الكتاب « عبقرية عمر » فأنهيت منها وإذا باقتراح من سلسلة « اقرأ » أن أكتب رسالة في الأدب على نحو الرسالة التي كنت أزمعت كتابتها عن عمر بن أبي ربيعة . فهذا الذي جمع كتابي عن عمر بن الخطاب وعن عمر بن أبي ربيعة في فترة واحدة ، وفيه من الاختيار شيء ، ومن التقدير السابق

شيء ، ولم يكن شأني فيهما بأغرب من شأن التاريخ بين
العمرين المتفاوتين هذا التفاوت في العمل والقول والسيرة .
فقد قيل إن ابن أبي ربيعة ولد يوم مات ابن الخطاب
(رضي الله عنه) فكان الناس يقولون بعد ذلك : أي حق
رفع وأي باطل وضع ! ويعجبون لمجيء هذا إلى الدنيا يوم
ذهاب ذلك .

فأما أن حقاً عظيماً رفع من الدنيا يوم فارقتها عمر بن
الخطاب ، فذلك ما لا ريب فيه ولا خلاف .

وأما أن باطلاً وضع في الدنيا يوم جاءها عمر بن أبي ربيعة
ففيه ريب وفيه خلاف

ونحن لا يعنينا أن يتفق المختلفون على نصيب ابن
أبي ربيعة من الحق والباطل ، فليكن له منهما ما يشاء ويشاء
المختلفون

ولنما يعنينا أن يستحق الدراسة الأدبية أو لا يستحقها .
وهو موضوع لا يختلف عليه الدارسون ، لأن ابن أبي ربيعة
ولا ريب ظاهرة أدبية ، وظاهرة نفسية قليلة النظر في الآداب
العربية ، وحقه في الدراسة كحق جميع الشعراء المعروفين بجهة
الفن وصدق التعبير . وإنه لفي الطليعة الملحوظة من هؤلاء

وتاريخ شاعرنا وجيز في حساب الحوادث والسنين ، فافرض
ما شئت من سنتين بينهما ديوان شعر ، فذلك أهم تاريخ له
بين سنة الميلاد وسنة الوفاة !

فمن المتفق عليه أنه ولد سنة ثلاث وعشرين للهجرة ،
ومن المختلف عليه سنة وفاته وسبب وفاته . فقيل إنه مات
حتف أنه كما قيل إنه مات مقتولا أو مدعواً عليه ، وقيل
إنه مات سنة ثلاث وتسعين كما قيل غير ذلك . فنحمد الله
على أن ما اختلف فيه التاريخ من أنباء الشاعر — ليس مما
يغير أو يبدل في حقيقته الشعرية أو حقيقته الفنية التي تعينا
وتعنى القراء . فحسبنا ديوانه وحده ، نعلم منه كل ما يهم
علمه ، ونتخذ منه موازين أدبه وحقائق نفسه . وإن أصدق
الشعراء فناً وحياة لمن تعرفه بديوانه وتعرفه لديوانه

وعلى هذا ندع الإسهاب في الحواشي والفضول التي
لا تؤدي إلى طائل في هذه الدراسة الفنية وفي كل دراسة فنية
على التعميم ، ونكتفي من أخباره وأحاديثه بما يفهمنا ديوانه
أو بما يفهمنا سليقته وآثاره الفنية ، وهو على قلته يغني ويفيد .
كان شاعرنا من سادة بني مخزوم ، ومن أكبر بيوتات
قريش ، وكان جده أبو ربيعة يسمى ذا الرمحين لطوله كأنه
يمشي على رمحين ، وقيل إنه قاتل في يوم عكاظ برمحين فسمى
بهما لذلك

وكان أبوه يدعى بحيرا فسماه النبي عليه السلام عبد الله ،
واشتهر بين قريش بلقب العدل لأنهم كانوا يكسون الكعبة
في الجاهلية من أموالهم سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ،
فلقبوه العدل لأنه يعدل قريشاً كلها في كسوة الكعبة ، وقيل

إن العدل هو الوليد بن المغيرة ، وليس عبد الله بن ربيعة
والد الشاعر

وكان بحيرا ، أو عبد الله ، تاجراً موسراً يتجر بين الحجاز
واليمن ، وكانت أمه من قبله عطارة يأتيها العطر من اليمن ،
واسمها مخزومة أو مخزبة في رواية أخرى ، وقد تزوجها هشام
ابن المغيرة فولدت له أبا جهل والحارث ابني هشام .

واستعمل النبي عليه السلام عبد الله على ولاية الجند
وسوادها (في اليمن) فلم يزل عاملاً عليها إلى مقتل عمر رضي
الله عنه وقيل بل امتدت ولايته إلى عهد عثمان . وكان له
عبيد كثيرون من الحبشة يتصرفون في جميع المهن ، فقبل
لرسول الله حين خرج إلى حنين : هل لك في حبش بني المغيرة
تستعين بهم ؟ فقال : « لا خير في الحبش إن جاعوا سرقوا
وإن شبعوا زنوا ، وإن فيهم لخلتين حسنتين : إطعام الطعام
والبأس يوم البأس »

أما أم الشاعر فكانت سبية من حضرموت أو من حمير
يقال لها « مجد » ، ومن هناك أتاه الغزل كما قالوا في زمانه :
« غزل يمان ودل حجازي ! » . وهي مع هذا ليست بالصلة
الوحيدة بينه وبين الحضارة اليمنية كما رأينا من علاقة أبيه وجدته
بتجارة اليمن وتجارة العطر منها على الخصوص ، وهي التجارة
التي بينها وبين معيشة الغزل والغزليين نسب قريب

ونشأ عمر في النعمة على وسامة وفراغ ، ومن حوله الجوارى

والأرقاء يهبتون له من اللهو ما يتهبأ للسيد الفتيّ الفارغ من متاعب الحياة، وقد وصفه بعض من رآه بين فتیان بنی مخزوم فقال : إنه « قد فرعهم طولاً ، وجهرهم جمالاً ، وبهرهم شارة وعارضة وبيانا . . . » فهو تامّ الأداة للغزل ومصاحبة الحسان ، وهو أقرب الفتيان من أبناء الحجاز إلى تمثيل بيئته حيث نشأ من مجتمع الحضارة اليمنية والحجازية في القرن الأول للهجرة ، أي في القرن الذي هدأت فيه بالحجاز حركة الدعوة النبوية ، كما هدأت فيه حركة السياسة بانتقال الدولة وعاصمتها إلى الشام ، ثم بقيت له بعد هدوء هاتين الحركتين بقايا الترف القديم من عهد الجاهلية ، وطوال الترف الجديد في دولة الإسلام .

وتواترت الأنباء بمطارحاته الغرامية طوال أيام الشباب ، ومعظم هذه الأنباء لا يعدو أن يكون منشور القصائد التي نظمها في ديوانه ، فهي لا تحوجنا إلى تردد كثير ولا إلى تمحيص طويل

فمن ديوانه نعلم ، قبل أن نعلم من سيرته ، أنه كان منقطعاً لأحاديث الظريفات من بنات مكة والمدينة ، وكان ينتظر أيام الحج ليلقى الحسان القادمات من العراق والشام واليمن ، أو يتعرض لهن في الطواف فيجنبنه حيناً ويزجرنه حيناً مخافة التشهير ، القائل في وصف هذه المواقف :

وكم من قتيل لا يُبَاء به دم
ومن غلّق رهناً إذا ضمه منى (١)
وكم مالىء عينيه من شىء غيره
إذا راح نحو الحمرة البيض كالدمى (٢)

فلم أر كالتجمير (٣) منظر ناظر
ولا كلبالى الحج يفتن ذا الهوى

إلا أن أناساً من أصحابه كانوا يعتقدون أنه على سنة الشعراء
الذين يقولون ما لا يفعلون ، وسأله ابن أبى عتيق وهو أقربهم
إليه : يا عمر ! ألم تخبرنى أنك ما أتيت حراماً قط ؟ قال :
بلى ، فاستخبره عن قوله :

وما نلت منها محرماً غير أننا
كلانا من الثوب المورد لابس

فأجابه : والله لأخبرنك . خرجت أريد المسجد وخرجت
زيتب تريده ، فالتقينا فاتعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسطنا
الشعب أخذتنا السماء فكرهت أن يبرى بثيابها بلل المطر فيقال

(١) باء القاتل أخذ بالقتيل . وغلّق الرهن ذهب به الدين .

(٢) الدمى جمع دمية وهى الصورة الجميلة .

(٣) التجمير رمى بالحمرة فى منى من مناسك الحج .

لها : ألا استترت بسقائف المسجد إن كنت فيه ؟ فأمرت
 غلماني فسترونا بكساء خبزٍ كان علىّ ، وهو الثوب المورّد
 المشار إليه . .

وقال الزبير بن بكار : « لم يذهب على أحد من الرواة
 أن عمر كان عفيفاً يصف ويقف ، ويحوم ولا يرد »
 وأقسم هو مرة أنه ما اطلع على جسد حرام ، وجاء في
 خبر آخر على لسانه ما يناقض هذا حيث يقول سمرة الدوماني :
 « إني لأطوف بالبيت فإذا أنا بشيخ في الطواف فقيل لي :
 هذا عمر بن أبي ربيعة . فقبضت على يده وناديته : يا ابن
 أبي ربيعة ! فقال : ما تشاء ؟ قلت : أكل ما زعمته في شعرك
 فعلته ؟ فأوماً إلى : إليك عني ، قلت : أسألك بالله . قال :
 نعم وأستغفر الله »

وآخرون يسلمون غوايته أيام الشباب ويقولون إنه تاب
 وأقلع بعد المشيب . ومنهم من يقسمها شطرين متساويين
 فيقول : إنه عاش ثمانين ، فتك منها أربعين ونسك أربعين .
 واتفقت أقوال كثيرة على نسكه في مشيبه وإعراضه عما
 كان يقبل عليه في شبابه ، فكان يلوم من يحدث امرأة في
 الطواف ، وبلغ من إعراضه عن الغزل أنه أقسم لا ينظمن
 بيتاً إلا أعتق به عبداً أو جارية . واستنشده الخليفة الوليد
 ابن عبد الملك سنة حجه فاعتذر إليه وقال : يا أمير المؤمنين !
 أنا شيخ كبير ، وقد تركت الشعر ، ولي غلامان هما عندي

بمنزلة الولد ، وهما يرويان كل ما قلت ، وهما لك . فأتشدها
ولم يزالا ينشدانه حتى قام وقد أجزل صلته ورد الغلامين إليه
وقد يصبح بعض هذا ولا غرابة فيه ، فمن المستبعد جداً أن
يكون عمر قد فعل كل ما ادعاه وإن كان قد اشتهاه ، ومن
الجائز أنه تاب وأخلص في التوبة بعد المشيب . فالتوبة ليست
بالأمر النادر بعد فوات الشباب ، وعمر مهياً لها بشيء في
طبيعة أسرته كما يظهر من سيرة أخيه الحارث وولده جوان؟
فقد كان أخوه الحارث متديناً شديد النفور من الغزل
ومصاحبة الحسان ، وقيل إنه وهب أخاه عمر ألف دينار على
أن يترك الغزل ولا يرجع إليه ، وإنه كان عنده يوماً فأرسله
في حاجة لهما ونام مكانه ، فإذا بالثريا قد ألقى نفسها عليه
تقبله . فصاح بها : اغربي عني فلست بالفاسق أخزاً كما الله ،
وعلم عمر بالخبر حين عاد فقال للحارث : أما والله لا تمسك النار
أبداً وقد ألقى نفسها عليك ؛ فقال أخوه : عليك وعليها لعنة الله !
وعلى هذه الخليفة كان ابنه جوان الذي قال فيه العرجي :

شهيدي جوان على حبها

أليس يعدل عليها جوان ؟

فغضب لزوج الشاعر باسمه في هذا المقام ، وقد كان أبوه
يصبح ويبيت فيه !

وكان من تلين أبيهم في الجاهلية أنه كان يتفرد وحده

بكسوة الكعبة سنة وتجتمع قريش كلها على كسوتها في السنة الأخرى ، وهو أمر إن دل على غناه من جانب فهو من جانب آخر دليل على تقواه

فالتوبة الدينية غير بعيدة من مزاج ابن أبي ربيعة الذي تتجلى فيه آثار الوراثة وهي لا تغيب كل المغيب في حياة إنسان ، وما زال معهوداً بين كثير من الأسر التي تضطرب فيها الحساسية العصبية أن يظهر فيها التقاة كما يظهر فيها الغواة ، لأن الطرفين يلتقيان في خليقة « التأثر » على تناقض ما يتأثران به بعض الأحيان ، وربما شوهد أن الغوى ينقلب إلى التقوى ، وأن التقى ينقلب إلى الغواية إذا اعترأها طارئٌ تختلف به وجهة التأثير

ولكن المرء يتوب عن عمل يعمل ولا يتوب عن مزاج طبع عليه ، ولهذا نصدق أن عمر قد تاب ، ونصدق أنه بقي إلى ختام الحياة يعاود الحنين إلى صبوات الشباب ، وفي الشيخوخة عبث ذلك العبث الذي صبا به إلى لقاء شيخة كان يغازها أيام الشباب ، فلما جلس إليها وأحس حركة البنات الناشئات ينظرون من ثقب الستر ، دعا بقاء يوهمها أنه سيشرّب ثم مجه عليهن في وجوههن ! . . وراقه أن يتصايحن ويضحكن . وقال لصديقتة العجوز وقد لامته على المجون والسفه في سنه :
ما ملكت نفسي لما سمعت من حركاتهن أن فعلت ما رأيت
هذا المزاج لا يتوب منه من طبع عليه

وهذا المزاج هو الذى ننظر إليه من وحي الشاعر فى شعره ،
ولا تتغير دلالاته من هذه الوجهة سواء صدق الشاعر فى كل
ما قال أو فى بعض ما قال ، وسواء تاب عن صدق أو خادع
نفسه وصحبه فى المتاب .

عصر ابن أبي ربيعة

لابن أبي ربيعة ديوان كبير يشتمل على بضعة آلاف بيت من الشعر كلها في الغزل إلا القليل ، وكل غزلها في الحوار والرسائل التي تدور بينه وبين حسان عصره وظريفاته

ويستغرب قارئ الديوان أن ينصرف شاعر في جميع شعره إلى هذا الغرض دون غيره ، وهو استغراب معقول يرد على كل خاطر للوهلة الأولى ، إذا اقتصرنا على النظر إلى الديوان وحده وقابلنا بين موضوعاته وموضوعات الشعراء المشهورين في الدواوين الكبيرة

ولكنه استغراب لا يلبث أن يزول أو ينقلب إلى نقيضه إذا تجاوزنا الديوان إلى العصر الذي نظم فيه الديوان ، والبيئة التي عاش فيها الشاعر . فربما أصبح العجب عندئذ أن يتمخض ذلك العصر عن ديوان واحد ولا يتمخض عن دواوين شتى من هذا القبيل ، وأن يكون ابن أبي ربيعة شاعراً فرداً في مجاله بغير نظير يحكيه في إكثاره وانقطاعه ، وقد كان ينبغي أن يقترن به نظراء متعددون

لأن العصر الذي عاش فيه ابن أبي ربيعة في تلك البيئة التي نشأ فيها كان عصرًا غزليًا في جميع أطرافه ، يشغله الغزل

ولا يزال شاغله الأول فوق كل شاغل سواه ، وربما عيب
على الرجل أن يتجافى عنه ويتوقر منه ، كأنه مطالب به
مدفوع إليه ، وليس قصارى الأمر فيه أن يسيغه ويأنس إليه
فما من عالم ولا فقيه ولا أمير ولا سرى بلغت إلينا أخباره
وأحاديثه إلا كان له من رواية الغزل والاستماع إليه نصيب
موفور ، وما من شدة كانت لا تلين له حتى شدة المحارم
والحرمان

كان ابن عباس رضى الله عنه فى المسجد الحرام وعنده
نافع بن الأزرق وجماعة من الخوارج يسألونه ويستفتونه ، إذ
أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين موردين حتى
دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس يستنشه من شعره ،
فأنشده الرائية التى يقول فى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر
غداة غدا أم رائح فهجر

إلى أن أتمها

فالتفت إليه نافع بن الأزرق قائلاً : الله يا ابن عباس !
إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد نسألك عن
الحلال والحرام فتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف فينشدك :
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيخزى وأما بالعشى فيخسر

فبادره ابن عباس قائلاً : ليس هكذا قال . إنما قال :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت
فيضحى وأما بالعشى فيخصر^(١)

وعجب نافع من حفظ ابن عباس للبيت فأعاد عليه
القصيدة كما جاء في بعض الروايات من مطلعها إلى ختامها ،
وقال لمن لامه في حفظها : إنا نستجيدها . ثم أقبل على ابن
أبي ربيعة يستزيده فأنشده :

تشطّ غداً دار جيراننا

وسكت ، فقال ابن عباس :

وللدار بعد غد أبعد

فقال له عمر : كذلك قلت - أصلحك الله - أسمعته ؟
قال : لا ، ولكن كذلك ينبغي
وكان بعد ذلك كثيراً ما يسأل : هل أحدث هذا المغيرى
شيئاً بعدنا ؟

* * *

وروى أن نوفل بن مساحق دخل مسجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم فمر بسعيد بن المسيب في مجلسه وحوله أصحابه فسلم
عليه فرد السلام ثم سأله : يا أبا سعيد ! من أشعر ؟ أصحابنا
أم صاحبكم ؟ يريد عبد الله بن قيس وعمر بن أبي ربيعة ،

فقال نوفل : حين يقولان ماذا يا أبا محمد ؟ فأنشده أبيات عمر :

خليلى ما بال المطايا كأنما
نراها على الأدبار بالقوم تنكص
وقد قطعت أعناقهن صباية
فأنفسنا مما يلاقين شخص

وقد أتعب الحادى سراهن وانتحى
بهن فما يألو عجول مقلص (١)
يزدن بنا قرباً فيزداد شوقنا
إذا زاد طول العهد والبعد ينقص

ثم قال : وحين يقول صاحبكم ما تشاء !
فأجابه نوفل : صاحبكم أشعر فى الغزل وصاحبنا أكثر
أفانين شعر

قال سعيد : صدقت . ثم انقضى ما بينهما من ذكر الشعر
فجعل سعيد يستغفر الله ويعقد بيده حتى وفى مائة
فاتجه سائل إلى نوفل يسأله : أترأه استغفر الله من إنشاد
الشعر فى مسجد رسول الله ؟ قال نوفل : كلا ! هو كثير
الإنشاد والاستنشاد للشعر فيه ، ولكن أحسب ذلك للفخر
بصاحبه

وكان شأن الأمراء والرؤساء فى هذا كشأن العلماء والفقهاء ،

فحدث الشعبي أنه دخل المسجد فإذا بمصعب بن الزبير على سرير والناس عنده ، فسلم وهم بالانصراف ، فاستدناه مصعب ودعاه أن يتبعه إذا قام

قال الشعبي : فجلس قليلاً ثم نهض إلى دار موسى بن طلحة وأنا أتبعه ، ثم دعاني إلى الدخول فدخلت معه إلى حجرته ووقفت ، فالتفت إلى وقال : ادخل ! فدخلت معه فإذا حجلة وإنما لأول حجلة رأيها لأمير . وسمعت حركة فكرهت الجلوس ولم يأمرني بالانصراف ، وإذا بجارية تناديني : يا شعبي ! إن الأمير يأمرك أن تجلس . فجلست على وسادة ورفُع سجف الحجلة^(١) فإذا أنا بمصعب بن الزبير ، ثم رفع سجف آخر فإذا أنا بعائشة بنت طلحة ، فلم أر زوجاً قط كان أجمل منهما . فقال مصعب : يا شعبي ! هل تعرف هذه ؟ قلت : سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة ! . . قال : لا . ولكن هذه ليلي التي يقول فيها الشاعر :

وما زلت من ليلي لادن طرّ شاربي
إلى اليوم أخفى حبها وأداجن^(٢)
وأحمل في ليلي لقوم ضغينة
وتحمل في ليلي على الضغائن

ثم قال : إذا شئت فقم

(١) الحجلة مكان يفرش ويزان بالستور . (٢) المداجنة المداينة.

قال الشعبي : فلما كان العشيّ ذهبت إلى المسجد فإذا هو جالس على سريره . فاستدنانى حين رآنى حتى وضعت يدى على مرافقه ، ثم مال إلى فقال : هل رأيت مثل ذلك الإنسان قط ؟ قلت : لا والله ! . . . فسألنى : أفترى لم أدخلناك ؟ قلت : لا ! قال : لتحدث بما رأيت . ثم التفت إلى عبد الله بن أبى فروة أن يعطينى عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً . فما أنصرف أحد بمثل ما أنصرفت به : عشرة آلاف درهم ، ومثل كارة القصار^(١) ثياباً ، ونظرة من عائشة بنت طلحة

والشعبي صاحب هذه القصة الذى حسب النظرة من غنائم يومه هو أكبر الرواة فى زمانه والثقة الحجة فيما حفظ من الأحاديث النبوية

ومصعب بن الزبير هو الأمير الذى نازع ونوزع فى الولاية وعاش على خطر من القتل حتى قتل ، وهو مع ذلك مشغول بالغزل كما رأيت ومشغول بأن يصبح هو وزوجه حديثاً غزلياً للمتحدثين

لا جرم يكون من تمام مروعة السرى يومئذ أن يعيش للغزل وأن يسعى بالوساطة فيه ، فكان ابن أبى عتيق - وهو من سلالة أبى بكر الصديق - يتشفع لعمر بن أبى ربيعة عند صديقه الثريا ولا يرى فى الدنيا خيراً إذا تم الصدع بينهما

(١) القصار مبيض الثياب ومحورها والكاراة ما يجمع فيه الثياب .

حدث مولاہ بلال أن سیده أنشد أبيات عمر التي يقول منها:

من رسولی إلى الثريا فإني
ضقت ذرعا بهجرها والكتاب

فصاح : إياي أراد ، وبي نوّه . والله لا أذوق أكلا حتى
أشخص فأصلح بينهما ، ونهض ونهضت معه ، فاكثري
راحلتين وسار سيرا شديداً فقلت : أبق على نفسك ، فإن
ما تريد ليس يفوتك !

فقال : ويحك : أبادر جبل الود أن يتقضباً (١)

وما حلاوة الدنيا إن تم الصدع بين عمر والثريا ؟

« فقدمنا مكة ليلاً غير محرمين ، فلدق على عمر بابه وسلم
عليه ولم ينزل عن راحلته ، وقال له : اركب أصلح بينك
وبين الثريا ، فأنا رسولك الذي سألت عنه ! وقدمنا الطائف
فقال ابن أبي عتيق للثريا : هذا عمر قد جشمتني السفر من
المدينة إليك ، فجئتك به معترفاً لك بذنب لم يجنه ، معترفاً
من إساءته إليك ، فدعيني من التعداد والترداد ، فإنه من
الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون . فصالحته أحسن صلح وأتمه
وأجمله ، وكررنا إلى مكة فلم ينزلها ابن أبي عتيق حتى رحل ... »
فالعصر الذي يكون هذا شأن الغزل عند علمائه وأمرائه
وأصحاب المروءة فيه لا جرم يكون الغزل حاجة من حاجاته التي

لا يشبع منها ، ويكون شعر الشاعر الواحد قليلا في التعبير
عن هذه الحاجة التي تعم كل بنيه وبناته ، وتشغل كل متحدثيه
ومتحدثاته

وقد كانوا يحسون حاجتهم إلى مثل ذلك الشاعر ويقولون
إنهم يحسونها ويفتقدونها ، فلما مات عمر بن أبي ربيعة حزنت
عليه نساء مكة ، وكانت إحداهن بالشام فبكت وجعلت
تقول : من لأباطح مكة ؟ ومن يمدح نساءها ويصف محاسنهن ؟
وعزاها بعضهم فقال : إن فتى من ولد عثمان بن عفان قد
نشأ على طريقته وأنشدها بعض كلامه فتسلت وقالت :
هذا أجل عوض ، وأفضل خلف ، فالحمد لله الذي خلف
على حرمة وأمته مثل هذا

وجاء في أخبار كثير بن عبد الرحمن الشاعر أنه مات
وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد . فقال الناس : مات
اليوم أفقه الناس وأشعر الناس ، وغلب النساء على جنازة
كثير يبكيه ويذكرن صاحبه عزة في نديتهن له . وأقبل
محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يشق طريقه
ويضرب الناديات بكمه قائلاً : تنحّين يا صويحبات يوسف !
فتصدت له امرأة منهن تقول : يا ابن رسول الله لقد صدقت ،
إنا لصويحبات يوسف وقد كنا له خيراً منكم له . فأوصى
بعض مواليه أن يحتفظ بها حتى يجيئه بها بعد انصرافه . ثم
جىء بتلك المرأة كأنها شرارة النار ، كما قال راوى القصة ،

فسأها محمد بن علي : أنت القائلة إنك ليوسف خير منا ؟
 قالت : نعم . تؤمنني غضبك يا ابن رسول الله ؟ قال : أنت
 آمنة من غضبي فأبينى . قالت : نحن يا ابن رسول الله دعونا
 إلى اللذات من المطعم والمشرب والتمتع والتنعم ، وأنتم معاشر
 الرجال ألقيتموه في الحب وبعتموه بأخس الأثمان وحبستموه
 في السجن ، فأينا كان عليه أحنى وبه أرأف ؟ فقال محمد :
 لله درك ! ولن تغالب امرأة إلا غلبت . ثم سأها : ألك بعل ؟
 فأجابته : لى من الرجال من أنا بعله ! قال أبو جعفر :
 صدقت ! مثلك من تملك بعلها ولا يملكها . . . »

* * *

تلك حال العصر وحال ساداته وسيداته من الغزل وأحاديثه .
 وليس العجب أن تستغرق هذه الأحاديث ديوان شاعر واحد
 ضخم أو صغر ، وإنما العجب أن ينفرد ابن أبي ربيعة بطريقته
 وديوانه في ذلك العصر ولا يكثر معه الأنداد والنظراء ، ولكل
 منهم مثل ذلك الديوان

والواقع أن مثل هذا الانفراد عجيب لولا أن نرجع إلى
 الحقيقة برمتها ولا نقف عند النظرة الأولى إلى العصر كله على
 الإجمال

فابن أبي ربيعة لم يكن شاعر الغزل في العصر كله ، ولكنه
 كان في الحقيقة شاعر الطبقة الوادعة المترفة من أبناء ذلك
 العصر وبناته دون غيرها ، وهي طبقة يعد أفرادها بالعشرات

ولا يتجاوزونها إلى المئات ، ومن كان من شعرائها يساويه في الحسب والجاه كالحارث بن خالد أو العرجي سليل عثمان ابن عفان فقد كان له شاغل آخر عن الغزل ومصاحبة الحسان ، فكان الحارث والياً لمكة وكان العرجي يشهد الوقائع بأرض الروم ، وكاننا مع ذلك دون عمر في الملكة الشعرية والطبيعة الغزلية ، فإذا اجتمع التعبير عن الطبقة كلها في الديوان الكبير الذي نظمه عمر بن أبي ربيعة فذلك حسب تلك الطبقة من حديث منظوم

فهو وحده كان الشاعر المكثّر بين الوادعين المترفين من أهل زمانه ، وكان مكانه في طبقة يبيحه أن ينقل عنها وتنقل عنه ، ويسمع منها وتسمع منه ويختلط بها وتختلط به على سنة المصاحبة والمساواة . فقد كان في الذؤابة من بيوت قريش غنى وجاهاً وحسباً ، وكان همه موكولاً بمن يساوينه في الطبقة من بنات تلك البيوت . إذ لا نعرف من أخباره خبراً واحداً شَبَّ فيه بفتاة من غير ذوات الشارات والأحساب ، وإن عرض بيت هنا وبيت هناك لفتاة من زائرات الحج المجهولات النسب فمن المحقق أن يكون مغريه بها النعمة البادية والسمة التي تم على الرفاهة والرخاء ، ثم لا يتعقبها إلى زمن طويل أما حسانه اللاتي اشتهر بالحديث عنهن وأحب أن يتسم بحبهن فكلهن من ذوات الحسب والثراء ، ومن طبقة محدودة لها ذوقها الخاص الذي لا يشبه عامة الأذواق

فعائشة بنت طلحة التي تقدمت الإشارة إليها بنت طلحة
ابن عبيد الله وحفيده أبي بكر الصديق من ناحية أمها ، وزوجة
مصعب بن الزبير ، وصاحبة الشهرة المستفيضة بالترف والعبث
بالمال ، فن أخبارها أن مصعباً دخل عليها وهي نائمة في الصباح
ومعه ثمانى لؤلؤات تقوم بعشرين ألف دينار ، فنبها ونثر
اللؤلؤ في حجرها ، فما زادت على أن قالت : نومى كانت
أحب إلى من هذا اللؤلؤ !

والثريا - ولعلها أحظى حسانه عنده - هي بنت على بن
عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس ، ولها
من الدور والرياض والمال حظ موفور

والسيدة سكينه بنت الحسين وفاطمة بنت عبد الملك بن
مروان هما في النسب والثراء مكان لا يعلوه في زمانهما مكان ،
ويلحق بهما من قريب أو بعيد حسان أخريات كلهن من
كبار البيوتات كزينب بنت موسى وهند بنت الحارث المريّة ،
ومن يشير إليهن بوصف النعمة والبذخ فيدل على طبقتهن ،
وإن لم يصرح بالكنى والأسماء

وعلى هذا لا عجب أن ينفرد عمر بحدِيثه المنظوم عن هذه الطبقة
فهو شاعرها الذي اجتمع له من أسباب التعبير عنها ما لم يجتمع لغيره
ولا عجب أن يترك لنا ديواناً كاملاً كله رسائل غرام ، لأنه

كان يعبر عن حاجة من حاجات عصره تتسع للدواوين
وقد يكون من تمام العلم بذلك الغزل الذي تفوق فيه أن

نعلم ما هو الترف الذى كان من أهله وكان موكولا بوصفه ،
فهو على الحملة ترف ساذج لا يخلو من مسحة البداوة ، وقد
تبدو سذاجته فى الدلال الحشن كما تبدو فى إظهار النعمة
بالمكاثرة والمباهاة التى يعوزها الصقل والطلاء . فمن الدلال
الحشن أن ترفع عائشة بنت طلحة عن ثمانى لآلىء بعشرين
ألف دينار وهى لو طارت بها فرحاً لكانت فى ذلك غرارة
طفولة هى أملح من كل ذلك الدلال ، وسرى فى فصول هذه
العجالة المقبلة أن الثريا كانت تلبس الخواتم كسائر بنات
عصرها فى جميع أصابعها ، وأنها لطمت بيدها وجه عمر حتى
أوشكت أن تخلع ثنيتيه ؛ ونرى أن إحدى معشوقاته ضربت
جارية أرسلها إليها . فمن الواضح أن نلمس أثر ذلك كله فى
غزل ابن أبى ربيعة وفى دلالة هو بصبوته وشارته ومركبه وملبسه
وشهرته الغرامية . فمن هنا كان شاعر عصره وشاعر طبقتة وشاعر
طريقته فى الغزل لا مرأى .

طبيعة غزله

كانت العلاقة بين الرجل والمرأة في قبائل العرب البادية على سنة الفطرة بين الجماعات البشرية الأولى ولكن الفطرة لا تكون على حالة واحدة إذ تغلب عليها القوة كما يغلب عليها الضعف ، وتوصف بالعرام والشدة كما توصف بالسهولة واللين ، وتظل على البساطة كما يعرض لها بعض التركيب ويعتريها شيء من التعقيد في البداوة الأولى كانت مناعة الحوزة هي الفضيلة العليا التي لا تلو عليها فضيلة أخرى لأنها غاية ما يتمناه البدوي في كفاح العيش ليضمن بقاءه بين منافسيه والمغيرين عليه فالقبيلة الشريفة هي القبيلة التي تمنع ماءها ومرعاها ، وتندود عن جيرتها وحماها والسيد الشريف هو الرجل الذي لا يُستخف بجواره ، ولا يُعتدى على ذماره والمرأة الشريفة هي التي يصعب منالها ولا يسلس قيادها فالعفة هنا فضيلة « حربية » تابعة للفضائل العامة التي تغلب على أحوال القبيلة برمتها : معقل منيع ، وسيد منيع ،

وبئر منيعة ، وامرأة منيعة ، وقس على ذلك كل ما تطلب فيه
الحصانة والاستعصاء

* * *

وإذا نظرنا إلى المرأة من حيث هي عرض الرجل الذي يحميه
ويغار عليه فلا جرم يصبح اللفظ باسم المرأة إهانة لها وإهانة
للرجل الذي يحميها في وقت واحد ، ويبلغ من ذلك أن يحرم
على الفتاة الزواج بألفى الذي اشتهر بحبها ونظم الشعر فيها
هذا هو عرف الفطرة الذي توجيه البداوة والبداهة
ثم يجيء سلطان الدين فيضيف إلى حصانة البداوة مناعة
إلى مناعة ، ويزيد حق أولياء النساء في حماية أسماهن والمطالبة
بعقاب من يغازهن ويلغظ بذكرهن ، لأن اللفظ بهن ازدراء
بأقدار أولياهن وحرام في الدين

* * *

لكنّ الأدب البدوي يدركه أحياناً عرض من أعراض
التغير أو الانحلال بلحذب شديد يحطم قيوده ويهدم حدوده ،
أو لترف تنغمس فيه القبيلة ، فتلين بعد جفاء وتراخي بعد
صلابة ، أو لقلّة الحاجة إلى القتال ونخوة العداة التي تجعل
المناعة فضيلة الفضائل ومعقد الأخلاق والآداب ، أو لما يحدثه
النعم من حب الدعابة والسخر بالخلافة وإن اشتملت على
سطوة وانطوت على إباء

فترى إذن من سهولة الغزل بين الرجل والمرأة ما تستغرب

أن تراه في حاضرة من حواضر العصر الحديث ، لأن المتغزل
البدوي قد يستخف بحواجز البداوة وحواجز الحضارة على
السواء ، أما الحضري من أبناء العصر الحديث فقد يعرف له
حدوداً تثنيه ولا يحسن به أن يتخطاها في بعض الأحاديث
والمساجلات ، وإن استطاع

حدث أبو الفرج الأصفهاني في ترجمة يزيد بن الطثرية
فقال ما نقله بتصريف يسير

« . . . كان كثيراً ما يتحدث إلى النساء

« قالت سعاد بنت يزيد : كان من أحسن من مضى
وجهاً وأطيبه حديثاً ، وإن النساء كانت مفتونة به

« وأحل الناس حتى ذهبت الدقيقة من المال وتهتكت
الخليلة ، فأقبل صرم^(١) من جرم ساقته السنة والجذب من
بلاده إلى بلاد قشير وبينهم وبين قشير حرب عظيمة

« فلم يجدوا بداً من رميهم بأنفسهم لما قد ساقهم من الجذب
والجماعة وما أشرفوا عليه من الهلكة

« ووقع الربيع في بلاد بني قشير فانتجعها الناس وطلبوها ،
فلم يعد أن لقيت جرم قشيراً فنصبت قشير لهم الحرب .
فقالت جرم : إنما جئنا مستجيرين غير محارين . . . فأجارتهم
قشير وسالمهم وأرعهم طرفاً من بلادها

« وكان في جرم فني يقال له مباد ، وكان غزلاً حسن

(١) جماعة من البيوت .

الوجه تام القامة آخذاً بقلوب النساء .

« والغزل في جرم بجائز حسن وهو في قشير نائرة
 « فلما نازلت جرم قشيراً وجاورتها أصبح مياد الحرمي فغدا
 إلى القشيريات يطلب منهن الغزل والصبأ والحديث واستبراز
 الفتيات عند غيبة الرجال . فدفعنه عنهن وأسمعنه ما يكره ،
 وراحت رجالهن عليهن وهن مغضبات ، فقال عجائز منهن :
 والله ما ندري أأرعيتم جرماً المرعى أم أروعيتموهم نساءكم ؟
 « وأشار بعض القوم أن يبیتوا جرماً فيصطلموها ، واستقبحه
 بعضهم لما فيه من غدر بالحوار ، وقالوا : لا تفعلوا . ولكن
 تصبحون وتتقدمون إلى هؤلاء القوم في هذا الرجل فإنه سفیه
 من سفهائهم ، فليأخذوا على يديه . فإن يفعلوا فأتوا لهم
 إحسانكم ، وإن يقرؤا ما كان منه يحل لكم البسط عليهم
 وتخرجوا من ذمتهم

« . . . فلما أصبحوا غدا نفر منهم إلى جرم فقالوا :
 ما هذه البدعة التي قد جاورتونا بها ؟ إن كانت هذه البدعة
 سجية لكم فليس لكم عندنا إرعاء ولا إسقاء ، وإن كانت
 افتناناً فغيروا على من فعله

فقهقتها جرم من جفاء القشيريين وعجرفيتهم ، وقالوا :
 إنكم لتحسون من نساتكم ببلاء . ألا فابعثوا إلى بيوتنا رجلاً
 ورجلاً

« قالوا : والله ما نحس من نساتنا ببلاء ، وما نعرف عنهن

إلا العفة والكرم . ولكن فيكم الذي قلم !
 « قالوا : فإننا نبعث رجلاً إلى بيوتكم يا بني قشير إذا غدت
 الرجال وأخلف النساء ، وتبعثون رجلاً إلى بيوتنا ونتحالف أنه
 لا يتقدم رجل منا إلى زوجة ولا أخت ولا بنت ولا يعلمها
 بشيء مما دار بين القوم

» . . . حتى إذا كان الغد غدوا إلى الماء وتحالفوا أنه
 لا يعود إلى البيوت منهم أحد دون الليل . وغدا ميثاد الجرمي
 إلى القشيريات ، وغدا يزيد بن الطثرية إلى الجرميات ، فظل
 عندهن بأكرم مظل لا يصير إلى واحدة منهن إلا افتتنت
 به وتابعته إلى المودة والإخاء ، وقبض منها رهناً وسألته ألا يدخل
 من بيوت جرم إلا بيتها . فيقول : وأي شيء تخافين وقد
 أخذت مني الموائيق وليس لأحد في قلبي نصيب غيرك ؟
 « ثم صليت العصر فانصرف يزيد بفتح^(١) وبراقع ،
 مكحولاً مدهوناً شبعان ريان مرجل اللمة

» أما ميثاد الجرمي فظل يدور بين بيوت القشيريات مرجوماً
 مقصياً لا يتقرب إلى بيت إلا استقبلته الولاثة بالعمد والحنندل ،
 فهالك هنّ وظن أنه ارتيادٌ منهن له ، حتى أخذه ضرب كثير
 بالحنندل ورأى اليأس منهن وجهده العطش ، فانصرف إلى
 سمرّة قريباً إلى نصف النهار نام تحتها نومة وتوسد يديه فسكن
 بعض ما به من ألم الضرب وبرد عطشه قليلاً ، ثم قرب على

(١) الفتحة : حلقة كالتام لا فص لها .

الماء حتى ورد على القوم قبل يزيد ، فوجد أمة تذود غنما في بعض الظعن فأخذ برقعها وألقى به وهو يقول ، برقع واحدة من نسائكم ! وجاءت الأمة تعدو فتعلقت برقعها فردوه عليها وهو خجل

« ثم أقبل يزيد ممسياً وقد كاد القوم أن يتفرقوا ، فنثر كفه بين أيديهم ملآن براقع وفتحاً . وقد حلف القوم ألا يعرف رجل شيئاً إلا رفعه -

« فلما نثر ما معه اسودت وجوه جرم وأهسكوا بأيديهم إمساكةً . . . فقالت قشير : أنتم تعرفون ما كان بيننا أمس من الموائيق . فمن شاء أن ينصرف إلى حرام فليمسك يده . . . »

* * *

وأعجب من هذا في استباحة الغزل أو استحسانه ما رواه ياقوت في مادة « رباط » من معجم البلدان حيث قال في وصف أهل هذا البلد . . . « أهله عرب ، وزعيم زى العرب القديم وفيهم صلاح مع شراسة في خلقهم وزعارة وتعصب ، وفيهم قلة غيرة كأنهم اكتسبوا بالعادة . وذلك أنه في كل ليلة تخرج نساؤهم إلى ظاهر مدينتهم ويسامرن الرجال الذين لا حرمة بينهن وبينهم ويلاعبنهم ويجالسهم إلى أن يذهب أكثر الليل ، فيجوز الرجل على زوجته وأخته وأمه وعمته وإذا هي تلاعب آخر وتحادثه فيعرض عنها ، ويمضي على امرأة

غيرها فيجالسها كما فعل بزوجته
 « وسألت رجلاً عاقلاً منهم أديباً فقلت له : بلغني عنكم
 شيء أنكرته ولا أعرف صحته

« فبدرني وقال : لعلك تعنى السمر ؟

« قلت : ما أردت غيره !

« فقال : الذي بلغك من ذلك صحيح ، وبالله أقسم إنه
 لقبيح ولكن عاينه نشأنا وله قد ألفنا ، ولو استطعنا أن نزيله
 لأزلناه ، ولو قدرنا لغيرناه . ولكن لا سبيل إلى ذلك مع ممر
 السنين عليه واستمرار العادة »

* * *

والملاحظ من كل ما قدمناه أن خفض العيش وقلة الحاجة
 إلى نخوة القتال لهما اتصال بما شوهد من سهولة الغزل بين
 القبائل العربية ، ولهذا كان أكثره إلى سلالات اليمن التي
 عُرِفَت منذ القدم باسم « العربية السعيدة » لخفض عيشها
 ورقة أخلاقها ، أو كما قيل إنها « تلك اليمانية الضعيفة قلوبها »
 وعندنا أن أهل البادية أقرب إلى الغزل - متى ارتفع وازع
 الصولة أو ارتفعت سطوة الدين - من أهل الحاضرة ، خلافاً
 لما يبدر إلى الظن أول وهلة

لأن أهل البادية أقرب إلى غرائز الأحياء الفطرية فيما
 يعالجونه من أنفسهم ومن سياسة المخلوقات الحية التي يروعونها
 ويعيشون عليها

ولأنهم كذلك أوفر نصيباً من الفراغ وأدنى إلى اللقاء وأقل
من أهل المدن الكبيرة أندية وملاعب للرياضة العامة يقضون
فيها سويعات البطالة والراحة . فإذا تيسر الرزق ولانت الشكائم
وذهبت الغرائز في مداها كان اللهو ديدنا لا فكاك منه لمن
فرغوا له واستطاعوه ولم يجدوا مصرفاً عنه إلى غيره ، وحسبوه
ظرفاً وملاحة لا يليقان بغير أهله

* * *

وقد نشأ شاعرنا - عمر بن أبي ربيعة - في حواضر الحجاز .
تلك الحواضر التي كانت لعهدده وسطاً بين البادية والمدينة
العامرة

فلم تكن خياماً ولا بيوتاً من الشعر منقطعة عن العمار
ولكنها لم تكن كذلك صروحاً ولا عواصم مستقلة بنفسها على
مثال دمشق ومصر والقسطنطينية

إنما كانت على الحقيقة مثابة الحجاج والقوافل ومنازل يأوى
إليها المغتربون إلى حين ، ويسكنها أهلها لضيافة من يقصدها
من غير أهلها في موسم الحج أو مواسم التجارة والارتياح

فهي كالمحلة الصحراوية التي لا تشبه الصحراء ولا تبلغ
مبلغ العاصمة من استبحار العمار

وكانت وسطاً بين عرام البادية كما نعرفها في الأعراب وبين
ذلك الاسترخاء الذي أنبأنا به أبو الفرج في الأغاني وياقوت في

معجم البلدان

فأسلس أبناء القبائل الذين سكنوها بعد خشونة وجفاء ،
ولكنهم لم ينسوا نخوة العرض ومنعة المحارم . فلما شب عمر
ابن أبي ربيعة بعائشة بنت طلحة من تيم بنى مرة كبر الأمر على
فتيان تيم فأنذروه لا يعودن إلى مثل ذلك ، وإلا أصابه شر
من أيديهم ، فأقسم لا عاد

ولانت شدة الدين بعد الخلفاء الراشدين ، ولكنها لم تبطل
ولم تتحلل في العرف الشائع بين الناس . بل كان عمر يلهو ما
يلهو ويتغزل ما يتغزل ثم لا ينسى أن يعلن مع هذا جاهداً
أنه لا يستبيح محرماً ولا يأتي بريبة ، ولا يزال على سنة الشعراء
الذين يقولون ما لا يفعلون

ولعل عائشة بنت طلحة كانت مثل المرأة الشريفة في تلك
الآونة : تعطي حق الحياء والدين وتعطي معه حق النعمة والجمال ،
فكانت ترفع عن الريب ولكنها لا تستر وجهها عن أحد .
وإذا عاتبها زوجها في ذلك قالت وفي كلامها قيس من حجة
الدين وحجة الدنيا : « إن الله وسئني بميسم جمال أحببت أن
يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لأستره . والله ما
في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد . . . »

قال صاحب الأغاني : « وطالت مراودة مصعب إياها
في ذلك ، وكانت شرسة الخلق ، وكذلك نساء بني تيم
هن أشرس خلق الله وأحظى عند أزواجهن . وكانت عند الحسين
ابن علي رضوان الله عليهما أم إسحاق بنت طلحة ، فكان

يقول : « والله لربما حملت ووضعت وهي مصارمة لي لا تكلمني ! »
وهذا مثل المرأة التي لا تنسى جمالها ولا تنسى بداوتها ولا
تنسى دينها ، ثم تأتي النساء دون ذلك درجات ممن وصفهن
ابن أبي ربيعة فقال :

فلما تفاوضنا الخديث وأسفرت
وجوهٌ زهاها الحسن أن تتقنعا
تباهن بالعرفان لما عرفني
وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا (١)
وقربن أسباب الهوى لمتيم
يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعا

فهن جميعاً مزهوات بجمالهن ، حريصات على أن يشهدن
أثره ويسمعن حديثه ، مشغولات بجلده ولهوه ، في عزة تتفاوت
بين الصلف وبين تقريب أسباب الهوى لمن يحسن الاقتراب
ويتجنب الارتباب

فمن الطبيعي أن ينشأ الغزل في هذه البيئة التي تغرى فيها
المرأة بالغزل وتصغى إليه

ومن الطبيعي أن ينشأ الشعراء الغزلون الذين يوافقون هذه
البيئة من طرفيها ، بين جد وشغف ، وبين هو وتزجية فراغ

(١) أكل بعيره أتبعه وأوضعه جعله يسرع ، والمعنى أنه مضى في
العناية حتى تعب .

وقد التفت إلى حديث المرأة كثير من الشعراء في ذلك العصر وفي تلك البيئة غير عمر بن أبي ربيعة ، وعلى غير طريقته ومنحاه . فكانوا على الجملة مدرستين مختلفتين في النزعة والسليقة وجوهر العاطفة ، وإن تشابها في ظاهر المعنى وظاهر الحنين والشكوى

إحدى هاتين المدرستين هي مدرسة الشعراء الذين اشتهروا بحب امرأة واحدة كما اشتهر قيس بليلي وعروة بعفراء وجميل ببشينة وكثير بعزة وتوبة بليلي

والمدرسة الأخرى هي مدرسة الشعراء الذين تغزلوا بأكثر من امرأة واحدة أو اشتهروا بحب النساء عامة ، كعمر والأحوص والعرجى وقيس الرقيات

والفرق كما أسلفنا بعيد بين العاطفة التي توحى شعر المدرسة الأولى والعاطفة التي توحى شعر المدرسة الأخرى

لأن علاقة رجل بامرأة واحدة يبتى على حبها زمناً طويلاً أو يبتى على حبها مدى الحياة هي حادث لا يتكرر كل يوم ولا بد فيه من عامل الشخصية التي تفرز المرأة من سائر النساء ، ويصح أن يقال إن هذه العلاقة « إصابة حب » كسائر الإصابات التي يتعرض لها الإنسان فتطول أو لا تطول وتصيبه وهو مستعد لها أو تصيبه على غير استعداد . فإنما المهم في تمييزها أنها إصابة عارضة وحادث من عوارض الأحداث

أما حب الغزل بالنساء عامة فهو مزاج يلازم صاحبه ملازمة الأمزجة للطبائع ، ولو لم يتصل بنساء معروفات ، فهو مخلوق على هذا المزاج كما يخلق الإنسان بلون من الألوان أو صفة من الصفات

فالرجل المغرم بحديث النساء ومجالستهن ومناوشتهن يقصد الجنس ولا يقصد الشخصية ، ويستطيع أن يرضى شعوره هذا دون أن يتقيد بأخلاق الوفاء وآداب العشق وخصال التضحية والصبر والتعذيب النفسى الذى لا معنى له عند من يتحدث اليوم إلى امرأة أو نساء كثيرات متجمعات ، ويتحدث غداً إلى امرأة أخرى أو نساء كثيرات أخريات

أما الرجل الذى « يفرز » بحبه امرأة دون غيرها فى نفسه عوامل أدبية وعهود أخلاقية وبواعث روحية لا موضع لها فى الحالة السابقة ولا حاجة إلى التعبير عنها فى شعر الغزلين المولعين بجميع النساء ، إلا على سبيل التجميل بالمحاكاة

فالمدرستان مختلفتان أيما اختلاف فى مقاييس الشعور ومقاييس الجنس ومقاييس الأخلاق ، ولا يجمع بينهما إلا تشابه الكلام فى ظاهره دون التشابه فى الباعث والاتجاه

ولا يقدح فيما تقدم من التفريق أن بعض العشاق يخون وأن بعض اللاهين بالغزل يعشقون ، فقد علمنا أن يزيد بن الطثرية أحب امرأة حتى أشرف على الهلاك ، وأن عمر تزوج ببعض من كان ينسب بهن . كما علمنا أن كثيراً امتحن فى

حبه فظهر غدره وقلة وفائه ، وهذا وذلك جائزان في الطبائع
الآدمية ولكنهما لا ينقضان الحقيقة التي لا جدال فيها : وهي
أن طبيعة العشق غير طبيعة اللهو والغزل ، وأن نفس الرجل
الذى يعشق امرأة واحدة غير نفس زير النساء المشغوف بالسمر
الأنثوى والمناوشة الجنسية . كالفندق يتفق في أيام أن ينفرد
بالإقامة فيه نازل واحد ، وكالبيت يتفق في أيام أن ينزل فيه
ضيوف كثيرون ، ولكن هذا لا يمنع أن الفندق غير البيت
وأنها يختلفان في البناء والتأثيث والإدارة والغرض والمعاملة ،
وأن التشابه بينهما من المصادفات وليس من النظام المطرد
في جميع الأحوال

إن العاشق الذى يخون حبيبته لا يشبه زير النساء الذى
يتصل بنساء كثيرات ، لأن خيانة العاشق المفرد معناها أنه
مطالب بالوفاء والعكوف على حب امرأة واحدة ، فإذا خان
هذه المرأة الواحدة لم يصبح زير نساء بل أصبح عاشقاً مخلًا
بالوفاء

أما الآخر الذى يتصل بنساء كثيرات فلا يقال فيه إنه
مخل بالوفاء ولا يواجه المرأة بالعاطفة التي تقبل الوفاء . فهما
في صميم الاستعداد مختلفان ، وإن كانا في ظاهر الفعل
متشابهين

* * *

وقد كان عمر بن أبي ربيعة إمام مدرسة اللاهين بالغزل

غير مدافع ، أو كان أصلح زملائه لإتقان هذه الصناعة لأنه كان على يسار عينه على اللهب والفراغ ، وكان على وسامة مقبولة وشأن يرفع من شأن غزله في قلوب النساء ، وكان للوراثة دخل في غزله إذا صح ما قيل في ترجمة حياته أن أمه « كانت أم ولد يقال لها مجد سبيت من حضرموت أو من حمير ، ومن هناك أتاه الغزل إذ يقال غزل يمان ودل حجازي » .. . وقد تقدم من وصف غزل اليمانية في بدوهم وحضرهم ما يزكي هذه الملاحظة ويعززها ، فإذا نحن أضعفنا قول القائلين بانتقال الأخلاق من الأمهات إلى الأبناء من طريق الوراثة وهو غير ضعيف في حكم العلم ولا في حكم التجربة — فليس وسعنا أن نضعف القول بتأثير العادة وانتقال الأخلاق من طريق الملازمة والمشاهدة

وربما رشحه للسبق في هذه الصناعة جانب أنثوى في طبعه يظهر للقارئ من أبياته الكثيرة التي تم على ولع بكلمات النساء واستمتاع بروايتها والإبداء والإعادة فيها ، مما لا يستمره الرجل الصارم الرجولة . وأدل من ولعه بكلمات النساء على الجانب الأنثوى في طبعه أنه كان يشبههن في تدليل نفسه وإظهار التمتع لطالباته كما يبدو من قوله :

قالت ثريا لأتأب لها قطف (١)

فمن نحيتي أبا الخطاب عن كذب

(١) جمع قطف وهي التي تمشي بخطوات ضيقة .

فطرن حدًّا لما قالت وشايعها
مثل التماثيل قد مُوهن بالذهب

أو كما يبدو من قوله الذي غيره به كثير في بعض الروايات
وهو :

قومي تصدّي له ليبصرنا
ثم اغمزيه يا أخت في خضر
قالت لها قد غمزته فأني
ثم اسبطرت تمشى على أثرى
قالت لها أختها تعاتبها
لا تفسدن الطواف في عمر

وصدق كثير حيث قال : « أترك لو وصفت بهذا الشعر
هرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت لها وقلت الهجر »
ولعل جانب الأنوثة فيه لا يظهر من شيء كما يظهر من
تدليل اسمه بين تلقيب وكناية وتسمية كما يعهد في أحاديث
النساء ، فهو تارة أبو الخطاب وتارة المغيرة وتارة عمر الذي
لا يخفى كما لا يخفى القمر ، وأشباه هذه الأنثويات التي يقارب
بها المرأة في المزاج ويسايرها في الحديث
ومن قبيل هذه الأنثويات أنه كان يقول : « لقد كنت
وأنا شاب أعشق ولا أعشق ، فاليوم صرت إلى مداراة الحسان
إلى الممات . ولقد لقيتني فتاتان مرة فقالت لي إحداهما : ادن

منى يا ابن أبى ربيعة أسر إليك شيئاً ، فدنوت منها وددت الأخرى
فجعلت تعضنى ، فما شعرت بعض هذه من لذة سرار هذه «
وهذا حديث من هو عاشق لنفسه قبل أن يكون معشوقاً
لغيره . ففيه خليقة المرأة أن تشعر بجنسها مطلوبة ولا تشعر
بجنسها طالبة ، وما من شاب يبلغ من العمر أن تعشقه المرأة
إلا قد بلغ من العمر أن يعشقها ما لم يمنعه مانع من عرف
أو زهادة ، فإن لم يكن هذا المانع فى انتظاره أن يطلب معشوقاً
قبل أن يطلب عاشقاً أنثوية لا ترضاها طبائع الفحول

* * *

على أن ابن أبى ربيعة كان من « الطبقة الاجتماعية » التى
ينتمى إليها ظريفات المجالس اللاتى يدور الحديث عليهن ومنهن
فى تلك الآونة ، فكان أقرب إلى معرفتهن وحكاية أحاديثهن
والحظوة عندهن والتوسل إلى مرضاتهن من سائر الشعراء الغزلين
من غير هذه الطبقة الاجتماعية ، وينبغى أن نذكر هنا أن
المسألة لم تكن عند ابن أبى ربيعة مسألة النساء أو مسألة الأنثى
على تعميمها ، وإنما كانت مسألة المرأة من طبقة واحدة هى
طبقة بنات الأسر المنعمات اللاهيات بمجالس السمر ومساجلات
الغزل عن كل شاغل . فلم يتفق مرة أن شبيب بامرأة فقيرة
كما يتفق لمن يشغل بالمرأة لأنها امرأة أو لأنها من جنس الإناث ،
ولكنه كان يحرص على ذكر الخدم والحشم وآثار النعمة
والترف كأنه مطالب بإثبات الغنى واليسر لمن يتغزل بهن .

ومن ذلك قوله :

ومدّ عليها السجف يوم لقيتها
 على عجل تباعها والخوادم
 فلم أستطعها غير أن قد بدا لنا
 عشيةً راحت كفها والمعاصم
 معاصمٌ لم تضرب على البهم في الضحى
 عصاها ووجه لم تلحه السائم
 يعنى أنها ليست براعية ولا رائدة تتعرض للسائم وهى تسوق
 الضأن فى البادية
 ومنه قوله :

يرفلن فى مطرفات السوس آونة
 وفى العتيق من الديباج والقصب
 ترى عليهن حلى الدر متسقاً
 مع الزبرجد والياقوت كالشهب
 ومنه قوله :

فقامت إليها حرتان عليهما
 كساءان من خز دمشق وأخضر
 ومنه قوله :

نواعم قب بدن صُمت البرى
 ويملأن عين الناظر المتوسم^(١)

(١) أى مترفات سمان صمتت خلاخيلهن من السن .

ومنه قوله :

وترى النسوان إن قامتا
مت وإن قمن خشوعا

وهو معنى شائع في جميع وصفه يكاد لا ينساه في صفة
امرأة واحدة من صاحباته

وعلى هذا لم يكن ابن أبي ربيعة معنيًا بامرأة واحدة شأن
العاشق ، ولا بالنساء حيث كن شأن المغرم بالنساء عامة ،
ولأنما كان معنيًا بالمرأة من بنات طبقة خاصة هي الطبقة التي
ينتمي إليها . فلا جرم يبرع غيره في مدرسة الشعر التي تدور
قبل كل شيء على أحاديث الظريفات ، ويحظى عندهن في
مجال لم يكن إلا مجال المناوشة بالأحاديث

فليس في شعره كله بيت يدل على سطوة رجل يروع
الأنثى بما تميل إليه فطرتها من مظاهر البأس والغلبة ، أو يدل
على سحر جمال يأخذ المرأة ولو لم يسبقه حديث ، وإنما يدل
شعره كله على لباقة المتحدث وطرافة المسامر وأناقة الظريف
المعروف بوسامته وشارته وردائه :

قالت أبو الخطاب أعرف زيه

وركوبه لا شك غير مرء !

وكل ما في شعره من معرفة بطبع المرأة فإنما هو مقصور على
الجانب الذي يتناوله المناوش اللبق ليثير اهتمامها تارة بحب

الثناء ، وتارة بالإعراض أو تحريك الغيرة أو لغو الفضول
فقوله في الدالية المشهورة :

ولقد قالت بلحارات لها
ذات يوم وتعرّت تبترد
أكما ينعتني تبصرني
عمركن الله أم لا يقتصد
فتضا حكن وقد قلن لها
حسنٌ في كل عين من تود
حسدًا حمله من أجلها
وقديماً كان في الناس الحسد

هو رواية صادقة أو تخيل صحيح لمثل هذه الواقعة ،
ويمثله قوله وقد أبلغت صاحبه أنه تزوج :

خبروها بأنني قد تزوجت
ت فظلت تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختها ولأخرى
جزعاً ، ليته تزوج عشرا
وأشارت إلى نساء لديها
لا ترى دونهن للسرا ستر
ما لقلبي كأنه ليس مني
وعظامي إخال فيهن فترا

من حديث نمي إلى فطيع
 نخلت في القلب من تلظيه جمرا
 فهو كذلك رواية صادقة لما تقوله المرأة التي يبلغها زواج
 صاحبها بلحاراتها ولدوات السر عندها
 وهكذا قوله :

واشتكت شدة الإزار من البه
 ر وألقت عنها لدى الحمارا
 حبدا رجعتها إليها يديها
 في يدي درعها تحل الإزارا

وهكذا سائر أقواله في هذه الأغراض
 غير أنها جميعاً لا تنبئ بشيء ينحى على ظرفاء المجالس
 وحقاق المناوشين بالكلام ، ولا تنطوي على شيء من نقائص
 طبع المرأة وألغاز سريرتها ودخائل أشجانها وأفراحها ، فعلم ذلك
 لم يكن قط من علم مجالس السمر ومناوشات الحديث
 إنما تأتي خبرة ظرفاء المجالس من تقارب الإحساس بين المرأة
 وبين هذه الطائفة من اللاهين والمتغزلين ، فهم يحسون كما
 تحس أو على نحو قريب مما تحس ، وهم يشبهونها بعض
 الشبه فيصدقون في الحكاية عنها والتحدث بخوالج نفسها .
 وفرقٌ بعيد بين هذا وبين الرجل الذي يعلم طبع المرأة وهو
 يخالفها في طبعها ، ويستجيش ضمايرها لأن هذه الضماير

تجاوبه مجاوبة الأنثى للذكر ، فيعرف من مجاوبتها كيف
تضطرب نفسها وتتقلب هواجسها وخواطرها . هذا يرى أثر
الرجل في طبع المرأة فيعرفه ، وذلك يعرف ما في طبعها لأن
الطبعين غير مختلفين في جملة الشعور

والمرأة تألف أحاديث هؤلاء اللاهين الغزلين وتفضلها على
أحاديثها مع بنات جنسها لأنها تستحضر بها شعور المماثلة
وشعور المناقضة في وقت واحد ، وهو شعور لا تستحضره
في مثيلاتها ولا في مجلس الرجل الذي تجاوبه مجاوبة الإناث
للذكور وتكون معه مأخوذة من أعماق طبيعتها مشغولة عن
مناوشات الحديث

ومن الواضح أننا أردنا بصدق ابن أبي ربيعة في الرواية
عن المرأة صدق الرواية الفنية ولم نتجاوزه إلى البحث في صدق
الرواية الخبرية وبيان ما حدث وما لم يحدث من أخباره في
جميع شعره ، فهو لا يقدم ولا يؤخر فيما نحن بصدده

وحسبنا أنه تخيل فأصاب التخيل ، وأنه عاش زمناً على
النحو الذي وصفه ببعض قصائده ، وما من شك بعد ذلك في
أنه قد اعتمد على الخيال كثيراً ونزع مترع القصاصين كثيراً ،
وأضاف من عنده ما لم يرد على لسان صاحبة له ولا صاحب
ممن أسند إليهم الكلام والحوار

وقد سره هو أحياناً أن يفهم الناس أنه يقول ما لا يفعل وأنه
داخل في حكم القرآن الكريم على الشعراء عامة : أنهم يقولون

ما لا يفعلون . فذلك أسلم له وأليق بالسمت الذي كان يتخذه
 بين ذوى الوقار حين يقول إنه يتجنب المحظورات
 قيل في سيرته إن سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف رضى
 الله عنه كانت جالسة في المسجد الحرام فرأت عمر يطوف
 بالبيت فأرسلت إليه فقالت حين جاءها : ما لي أراك يا ابن
 أبي ربيعة سادراً في حرم الله ؟ ويحك أما تخاف الله ؟ ويحك
 إلى متى هذا السفة ؟ . . . فقال : أى هذه ! دعى عنك هذا
 من القول . أما سمعت ما قلت فيك ؟ قالت : لا . فأنشدها
 البائية التي يقول فيها :

رُدع الفؤاد بذكره الأَطراب

وصبا إليك ولات حين تصاب

إن تبدلى لى نائلاً يشفى به

سقم الفؤاد فقد أطلت عذابي

وعصيت فيك أقاربي فتقطعت

بينى وبينهم عرى الأسباب

وتركتنى لا بالوصال ممتعاً

يوهياً ولا أسعفتنى بثواب

فقعدت كالمهريق فضلة مائه

فى حرّ هاجرة للمع سراب

يشفى به منه الصدى فأماته

طلب السراب ولات حين طلاب

قالت سعيدة والدموع ذوارف
 منها على الحديد والجلباب
 ليت المغيرى الذى لم تجزه
 فيما أطال تصيدى وطلائى
 كانت ترد لنا المنى أيامنا
 إذ لا نلام على هوى وتصاب
 نُخبّرت ما قالت فبت كأنما
 رُمى الحشا بنوافذ النُشّاب
 أسعيد ما ماء الفرات وطيبه
 منا على ظمأ وحب شراب
 بألد منك وإن نأيت وقلما
 ترعى النساء أمانة الغياب

فلما فرغ من إنشاده قالت له : أخزأك الله يا فاسق ؛
 ما علم الله أنى قلت مما قلت حرفاً ، ولكنك إنسان بهوت
 فهذه قصة طويلة عريضة تقاس بها مثيلاًتها ، ولعل ادعاءه
 فى غير هذه القصة أقرب إلى البهت وأدنى إلى التخيل ، لأنه
 يضع الغزل والشكوى على اسان سيدة حصان تخاطبه بالوعظ
 والنصيحة . فما أحراه أن يخلق الغزل على من يُظن بهن الخوض
 فيه والحنين إليه !

ويخيل، إلينا أن كثيراً من الحسان اللائى كن يتصدين له
 ويشجعنه على التغزل بهن ونظم القصائد فى وصفهن إنما كن

يفعلن ذلك إرضاء لغرورهن وتنويهاً بجمالهن وحباً للتحدث
 بأخبارهن ، ولا سيما المقبلات في الحج من بلاد غير بلاد
 الحجاز . فقد كان يرضيهن ولا ريب أن يرجعن إلى بلادهن
 بأبيات تتساير بها الركبان ويفهم منها الأتراب المنافسات أنهن
 ذهبن إلى الحجاز فخلبن ألباب رجاله وأطلقن ألسنة شعرائه
 وصرفنهم عن الغزل بحسانه ، وقل في الحسان من ليست تغتر
 بمثل هذا الغرور في زمان عمر ، وفي كل زمان

ومن أمثلة ذلك قصة العراقية التي رواها صاحب « الأغاني »
 حيث يقول :

« بينما عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى امرأة من
 أهل العراق فأعجبه بجمالها ، فمشى معها حتى عرف موضعها ،
 ثم أتاها فحادثها وناشدها وناشدته وخطبها ، فقالت : إن
 هذا لا يصلح ها هنا . ولكن إن جئتني إلى بلدي وخطبتني
 إلى أهلي تزوجتك . فلما ارتحلوا جاء إلى صديق له من بني
 سهم وقال له : إن لي إليك حاجة أريد أن تساعدني عليها .
 فقال له : نعم . فأخذ بيده ولم يذكر له ما هي ، ثم أتى
 منزله فركب نجيباً له وأركبه نجيباً آخر ، وأخذ معه
 ما يصلحه وسارا لا يشك السهمي في أنه يريد سفر يوم
 أو يومين ، فما زال يحفد حتى لحق بالرفقة ، ثم سار بسيرهم
 يحادث المرأة طول طريقه ويسايرها وينزل عندها إذا نزلت
 حتى ورد العراق . فأقام أياماً ثم راسلها يتنجزها وعدها ،

فأعلمته أنها كانت متزوجة ابن عم لها وولدت منه أولاداً
ثم مات وأوصى بهم وبماله إليها ما لم تتزوج ، وأنها تخاف
فرقة أولادها وزوال النعمة ، وبعثت إليه بخمسة آلاف درهم
واعترضت ، فردها عليها ورحل إلى مكة وقال في ذلك قصيدته
التي أولها :

نام صحبي ولم أنم
من خيال بنا ألم

إلى آخر هذه القصيدة

فهذه الحسنة العراقية لم ترد حباً ولا زواجاً ولا متعة حديث
ولكنها أرادت أن يشهر بين الناس أنها أزعجت شاعر الغزل
في الحجاز عن وطنه حتى لحق بها وتمنى زواجها فلم تجبه إلى
مناه . وهذا الذي صنعتته الحسنة العراقية تصنعه الحسان
الحجازيات اللاتي يابن السكوت عنهن إن كان معنى هذا
السكوت أنهن أقل جمالا وفتنة ممن نظم فيهن الغزل وجرى
بوصفهن الحديث . فيتصددين للغزل ولا يتجاوزن به هذه
الملهيات أو هذه المناوشة ، وإن طاب للشاعر أن يصرف هذا
التصدى إلى غير معناه ، وأن يرضى به غروره هو كما أرضين
غرورهن به من ناحيتهن

* * *

وشبيه بالبحث في صدق أخباره بحثنا هنا في صدق توبته
وسبب تلك التوبة ، فهل تاب ؟ ولم تاب ؟ أتأب إيثاراً للهدى ؟

أخوفاً من السلطان؟ أياً من الغواية بعد إدبار الشباب؟ أحبباً للجمال الذي وعده أخوه أن يجريه عليه إذا هو أقلع عن الغزل والتشبيب؟ بحث ذلك نافع في استقصاء سيرته وأخلاقه ، ولكنه لا يلزمنا هنا في تحليل معانيه والنفاذ إلى حقيقة غزله وأسلوبه فنه ودخيلة مزاجه وطبعه ، وما يستطيع إنسان أن يتوب عن المزاج والطبع وإن تاب عن بعض الأفعال أو بعض الأقوال ، فسيبني كما خلق لا يبدل شيئاً من خلائقه إلا ما يستطيع فيه التبديل

قال مولى لعمر : كنت مع عمر وقد أسن وضعف ، فخرج يوماً يمشى متوكئاً على يديه حتى مر بعجوز جالسة فقال : هذه فلانة ! وكانت إلفاً لي . فعدل إليها فسلم عليها ، وجلس عندها وجلس يحادثها ، ثم قال : هذه التي أقول فيها :
ما زال طرفي يحار إذ برزت
حتى التقينا ليلاً على قدر

فأطلعت رأسها إلى البيت وقالت : يا بناتي هذا أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة عندي ، فإن كنتم تشتهين أن ترينه فتعالين ! فجئن إلى مضرب قد حجزن به دون بابها ، فجعلن يثقبينه ويضعن أعينهن عليه يبصرن ، فاستقاها عمر . فقالت له : أي الشراب أحب إليك ؟ قال : الماء ! فأتي بإناء فيه ماء ، فشرب ثم ملأ فمه فمجه عليهن وفي وجوههن من وراء الحاجز ، فصاح الجوارى وتهاربين وجعلن يضحكن . فقالت العجوز :

ويلك ! لا تدع مجونك وسفهك مع هذه السن ! فقال :
 تلوميني ؟ ! فما ملكت نفسي لما سمعت من حركتهن أن فعلت
 ما فعلت . . . »

والمزاج الذي أشرنا إليه آنفاً كما تدل عليه هذه القصة هو
 موقع الاستشهاد ، فهو مزاج رجل لا يسلو معاينة النساء ولا
 يملك أن يستعصم من التصابي حيث تستغويه دواعيه . فالقصة
 على هذا النسق ترجمان ذلك المزاج المعروف في الشيوخ
 المتصابين ، إن صحت فهي خبر صادق ، وإن لم تصح فالتصابي
 في الشيوخ من أشباه عمر بن أبي ربيعة صحيح ، لأنه لا يبطل
 ببطلانها ولا يعتمد في وجوده عليها .

صناعته

ابن أبي ربيعة من أحسن النماذج الأدبية التي يتجلى فيها الفرق بين الإمامة في الطريقة الشعرية والإمامة في الصناعة الشعرية

فقد يكون الشاعر أصلح الناس لتمثيل طريقة أو مدرسة من مدارس الشعراء المختلفة ولكنه لا يكون مع ذلك إماماً في صناعة النظم وصياغة القصيد

وقد كان شاعرنا بمولده ومزاجه ومعيشته وبيئته وشارته أصلح من يمثل شعراء عصره المشهورين بالغزل في أكثر من امرأة واحدة والولع بمجالسة النساء ، ولكنه في اعتقادنا لم يكن أفضلهم نظماً ولا أبرعهم قصيداً ، ولا أقدرهم صناعة ، على إجادته الموفقة في أبيات ومقطوعات

وقد كثرت الشهادات له في عصره ممن تروى عنهم الشهادة للشعراء ويسمع لهم رأى في المفاضلة بين ضروب الكلام . فكانت مشيخة من قريش لا تعدل بشعره شعراً قط وقد تستحسن منه ما يقبح من غيره ، وكان بعضهم يزعم أن « العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلا في الشعر ، فإنها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها شيئاً »

وروى عن نصيب أنه تكلم عن عمر بن أبي ربيعة فقال :
« هو أوصفنا لربات الحجال »

وروى عن الفرزدق أنه سمع طرفاً من نسيبه فقال : « هذا
الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ، ووقع
هذا عليه »

وأنه اجتمع به فما زال عمر ينشده وهو يطرب ويستزيد
حتى أنشده القصيدة التي يقول فيها :

فقمي لكي يخلينا فترقرقت
مدامع عينيها وظلت تدفق

وقالت : أما ترحمني ! لا تدعني
لدى غزل جم الصباية يخرق
فقلن اسكتي عنا فليست مطاعة

ونحك منا - فاعلمي - بك أرفق

فصاح الفرزدق : أنت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس
وكان جرير على ما زعم الرواة يسمع شعر ابن أبي ربيعة
فيقول : « هذا شعر تهامى إذا أنجد وجد البرد » فأنشده يوماً
من كلامه :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت
فيضحى ، وأما بالعشى فيخصر

قليلاً على ظهر المطية ظله
سوى ما نبي عنه الرداء المحبتر

وأعجبها من عيشها ظل غرفة
 وريان ملتف الحقائق أخضر
 ووال كفاها كل شيء يهملها
 فليست لشيء آخر الليل تسهر
 فقال : ما زال هذا القرشي يهدى حتى قال الشعر
 وأنشده مرة من كتابه :

سائلا الربع بالبلى^(١) وقولا
 هجت شوقاً لي الغداة طويلاً
 أين حي حلوك إذ أنت محفو
 ف بهم أهل أراك جميلاً
 قال ساروا فأمعنوا واستقلوا
 وبرغمي لو استطعت سبيلاً
 سئمونا وما سئمنا مقاماً
 وأحبوا دماثة وسهولاً

فقال جرير : « إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه
 وأصابه هذا القرشي »
 وما نسب إلى جرير أيضاً أن رجلاً من أبناء المدينة
 استنشده فلم يجبه وقال : « إنكم يا أهل المدينة تعجبكم النسيب ،
 وإن أنسب الناس المخزومي »

(١) اسم تل صغير .

وسئل حماد الراوية عن شعره فقال : « ذلك الفستق المقشر ! »

فهذه الشهادات وأمثالها تدل على شيء واحد لا تعدوه ، وهو الشهرة بالنسب بين أبناء عصره ، ولكنها لا تؤخذ مأخذ الجدل ولا تصمد على المناقشة في معرض النقد الصحيح ؛ وأولها ما روى عن فحول الشعراء من معاصريه كجرير والفرزدق ونصيب ، لأن الشعر الذي زعموا أنه أرغمهم على الشهادة لعمر وتفضيله عليهم ليس مما يرغم المكابر ولا المنافس ولا المنصف الخلى من الغرض ، إن شاء أن ينكر ولا يعترف بتفضيل ، فإن كان الاعتراف بالتفضيل مجاملة ومسايرة للمحادث فليس هو إذن بالنقد الذي يؤخذ به في تمحيص الأقدار وموازنة الأشعار

ويساوى هذه المجاملة في قيمة الشعر قولهم إن العرب أنكرت على قريش الشعر حتى ظهر ابن أبي ربيعة فاعترفت لهم به وكفت عن المنازعة

فتى حصل ذلك ؟ وكيف كان حصوله ؟ في أي مؤتمر وفي أي محضر ؟ وعلى أي صورة تبين الإنكار والمنازعة ثم تبين الاعتراف والتسليم ؟ لا مؤتمر ولا محضر ولا إشهاد بإنكار ولا بتسليم . وهذا فضلا عن تكرار هذه الشهادات من هؤلاء الشاهدين أنفسهم لشعراء آخرين غير عمر بن أبي ربيعة وبعضهم من معاصريه . فشيخة قريش التي تقدم ذكرها هي

بعينها التي روى صاحب الأغاني عنها في ترجمة « الغريص »
 أنها اتفقت على اختيار ابن قيس الرقيات شاعراً لقريش في
 الإسلام ، ونصيب هو الذي قال كما روى صاحب الأغاني
 أيضاً : « لقد نحت "جميل" للناس مثالا يحتدون عليه .
 أما أصدقنا في شعه فجميل وأما أوصفنا لربات الجمال
 فكثير ، وأما أكذبنا فعمربن أبي ربيعة ، وأما أنا فأقول ما
 أعرف . . . »

فأمثال هذه الشهادات كلام يقال ولا محصل له إلا أن
 الشاعر مشهور مشهود له بالتفوق في بابهِ بين جمهرة عارفيه ،
 ولا غنى عن الرجوع إلى الشواهد عند تقدير هذه الشهادة
 وتقويمها بما يثبت لها من قيمة صحيحة

ومحصل هذه القيمة كما تدل عليه الشواهد من أقوال الرجل
 وملكاته أنه كان بمولده ومزاجه ومعيشته وبيئته وشارته أصلح
 الشعراء في عصره لإمامة هذه الطريقة التي فرغ لها وتقدم فيها ،
 وأنه يأتي بالروائع التي تجرى مجرى الأمثال ولكنه لا يبلغ في
 الصناعة مبلغ الإمامة بين الشعراء ، لما يبدو عليه في أكثر
 كلامه من الفتور والإعياء

فمن روائعه التي جرت مجرى الأمثال ، قوله في بيان أقصى
 مدى لحب :

حبكم يا آل ليلى قاتلي
 ظهر الحب بجسمى وبطن

ليس حبُّ فوق ما أحببتكم
غير أن أقتل نفسي أو أجن

وقوله :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة
إنما العاجز من لا يستبد

وقوله :

وذو الشوق القديم وإن تعزى
مشوق حين يلقى العاشقينا

وله وصف حسن كما قال :

أبت الروادف والثدى لقمصها
مس البطون وأن تمس ظهورا
ووصف جواداً مجهداً فأبدع حيث قال :
تشكى الكميت الجرى لما جهده
وبين لو يستطيع أن يتكلما

إلا أن الأكثر من شعره يبدو عليه الجهد والإعياء في
تقويم البيت والوصول به إلى القافية ، وأمثلة ذلك كثيرة منها :

فقامت ولم تفعل ونامت فلم تطق
فقلت لها قومي فقالت ولم كم

تُبَيِّنُ غير أن قد أوَمَّاتُ فعهدتها
 كشارب مكنون الشراب المحتم
 فكرر « لم » لغير موجب غير حرج القافية ، و فرق بينها
 وبين الفعل الذي تنفيه في بيتين وهو لا يساغ

ومنها :

مرحباً ثم مرحباً بالتي قا
 - لت غداة الوداع يوم الرحيل
 للثريا قولى له أنت همى
 ومنى النفس خالياً والجليل
 أى وأقسم بالجليل . واضطرار الشاعر هنا ظاهر لإتمام
 البيت فضلاً عن وصل البيتين

ومنها :

ألم تعلمى أنى ؛ فهل ذاك نافع
 لديك وما أخفى من الوجد أفضل
 أرى مستقيم الطرف ما أم نحوكم
 فإن أم طرفى غيركم فهو أحسول
 أراد أن يقول « ألم تعلمى أنى أرى مستقيم الطرف إلخ »
 فغلبه النظم وجاء بذلك الكلام المعارض الذى كان يحسن أن
 يتأخر أو يتقدم

وقلما تعرف له قصيدة لا يضطر فيها إلى تحويل الضمير

من المؤنث إلى الجمع ومن المخاطب إلى الغائب في البيت الواحد
لضرورة الوزن ليس إلا كما قال :

يا سُكْنُ حُبِكَ إذ كلفت بحبكم
عرضاً أراه ورب مكة ممرضى

أو كما قال :

يا ربة البغلة الشهباء هل لكم
أن ترحمى عمراً لا ترهقى حججبا

وذلك في شعره كثير جداً لا فائدة من إحصائه
وهو يخطئ قواعد اللغة لضرورة الوزن والإقافية كما قال :

من ذا « يلمنى » إن بكيت صباية
أو نحت صباً بالفؤاد المنضج

ومن هنا لا تجزم يلوم

أو كما قال :

فقلت لهم كيف الثريا هبيلتم
فقالوا ستدرى ما مكرنا وتعلما

أو كما قال :

فهلا « تسألى » أفناء سعد
وقد تبدو التجارب للبيب

والصواب تسألين لأن هلاً لا تجزم الفعل المضارع
إلى نظائر هذه الأخطاء والعثرات لا تراها على كثرة .

كلام أمراء الصناعة

فربما كثر الرديء في أشعارهم وأرنبى على الجيد في معظم الأحيان ، ولكن الإتيان بالرديء غير الإعياء الذي يكشف مدى الطاقة وينم على الفاقة . فقد يلبس الرجل الثياب الغالية والثياب الرخيصة دواليك ، فلا يدل ذلك على فقره كما يدل عليه لباس فاخر فيه رقعة ، وإن لم يكن في ملبسه ثوب رخيص ويبدو لنا أن ضعف صناعته من ضعف اطلاعه على شعر المجيدين إلا ما كان يسمعه ويسمعه غيره من شعراء زمانه ، ولعله كان ينجو من بعض هذا الضعف في الصناعة لو وفر حظاً من الاطلاع والرواية . لأنه كان على ذوق حسن في الإعجاب بالجيد من الكلام ، كما يظهر من أخباره القليلة في النقد والتعليق على الشعر الذي يسمعه من رواته

قال عثمان بن إبراهيم الخاطي : « أتيت عمر بن أبي ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو في مجلس قومه من بني مخزوم ، فانتظرت حتى تفرق القوم ثم دنوت منه ومعى صاحب لي ظريف وكان قد قال لي : تعال حتى نهيجه على ذكر الغزل فننظر هل بقي في نفسه منه شيء ؟ فقال له صاحبي : يا أبا الخطاب أكرمك الله . لقد أحسن العذري وأجاد فيما قال . فنظر عمر إليه ثم سأله وماذا قال ؟ فأنشده :

لو جُذت بالسيف رأسي في مودتها
لمر يهوى سريعاً نحوها رأسي

فارتاح عمر إلى البيت وقال : هاه ! لقد أجاد وأحسن . . .
 فقلت : والله در جنادة العذرى . فقال عمر حيث يقول ماذا
 ويحك ؟ فأنشدته :

سرت لعينك سلمى بعد مغفاها
 فبت مستنبهاً من بعد مسراها
 وقلت أهلاً وسهلاً من هداك لنا
 إن كنت تمثالها أو كنت إياها
 من حبها أتمنى أن يلاقيني
 من نحو بلدتها ناع فينعاها
 كما أقول فراق لا لقاء له
 وتضمير النفس ياساً ثم تسلاها
 ولو تموت لراعتني وقلت ألا
 يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها
 فضحك عمر ثم قال : وأبيك لقد أحسن وأجاد وما
 أبقى . . . »

فهو قمين أن يكثر من الإجابة لو أكثر من الاستجابة ،
 وأن يقوم من صناعته لو نظر في صناعات المقتدرين من
 صاغة القريض ، ولكنه كما يبدو من أخباره ومن كلامه
 كان معكوفاً على نفسه راضياً بما يصل إلى سمعه في غير ما
 جهد ولا متابعة .

ومن ثم كان إمام مدرسة ولم يكن إماماً في صناعة القصيد ،

وكانت مدرسته فذة في الأدب العربي بأسره ، لأنها مدرسة لا يسهل على العقل أن يتخيل نظيرها كثرة وشيوعاً في غير الحجاز وفي غير تلك الآونة . إذ هي تحتاج إلى بيئة وسط بين البادية والحضر ، ووسط بين الجاهلية المولية وآداب الإسلام المقبلة ، ووسط بين شواغل العاصمة التي فيها الملك والدولة ، وشواغل المدينة الصحراوية القاصية التي لا يبلغها شيء من ذلك ، ووسط بين حالة مكة في عهد النبي والخلفاء الراشدين ، وحالتها في عهد الأمويين والعباسيين ، وما بعد ذلك من أيام اقتصر شأنها فيها على منسك الحج من العام إلى العام

وهل كانت مدرسة كمدرسة ابن أبي ربيعة وزملائه تنشأ في بغداد أو في القاهرة أو في عواصم الأندلس ، وفيها الإباحة المكشوفة أو فيها الشواغل للرجال والنساء ، غير عقد المجالس في الحلوات وتبادل الأحاديث ؟

أو هل كانت مدرسة كمدرسة ابن أبي ربيعة تنشأ في مكة نفسها بعد مائة عام ، وليس فيها حياة مدنية تحتل إقامته وإقامة أمثاله وأمثال صاحباته ، ولا حياة أدبية يترجم عنها الشعراء ؟

فابن أبي ربيعة هو ابن الحجاز ، وابن العصر ، وابن البيئة التي ترجمها ، فأحسن الترجمة ، ثم عاش بهذه المزيج بين شعراء العربية

وللحكم على صناعة ابن أبي ربيعة وجه آخر التفت إليه
العصريون مذ شاعت القصة بينهم نظماً ونثراً وكثر التفاتهم
إليها ، فرأى بعض النقاد أن الشاعر قد أبدع فن القصة المنظومة
أو أكثر منها إكثاراً لم يؤثر عن شاعر قبله ، وهذا صحيح إذا
أردنا الإكثار دون الإبداع والاختراع ، وأردنا « الحوار
القصصي » ولم نرد القصة بمعناها الشامل الوافي ولو كانت
أقصوصة وجيزة . فالقصة شيء والحوار الذي يرد خلال القصة
شيء آخر . ومن قال لنا إنني ذهبت إلى فلانة فقلت لها وقالت
لي ، وبكت وبكيت ، فقد روى لنا منظرًا قصصيًا يدخل في
حكاية مستوفاة العرض والوصف والملاحظة والحوار ، ولكن
ابن أبي ربيعة لم يكن يتوخى هذا الاستيفاء ، أو يتجاوز
الحوار القصصي إلى ما وراءه من التخيل والتمثيل ، وهيئة القالب
النفسي الذي يتركب فيه الحوار بالكلام . وإن فعل ذلك
فإنما يفعله مسوقاً إليه بحواره وسرده ، ولا يزال بين هذا وبين
فن القصة بون بعيد . فإنما هذا من فن « الحديث المنظوم »
وليس من فن القصة كما يتخيلها المطبوعون عليها . ولا نزاع
في قدرة ابن أبي ربيعة على الحديث المنظوم ، فهو في هذا
الجانب من صناعته قليل النظير .

مقارنة

قال أبو غسان دَمَاز :

« سألت أبا عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهدي
بشاراً عن ذكر النساءِ قال : كان أول ذلك استهتار نساء
البصرة وشبانها بشعره حتى قال سوار بن عبد الله الأكبر ومالك
ابن دينار : ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من
أشعار هذا الأعمى ! وما زالا يعظانه

« وكان واصل بن عطاء يقول : إن من أخدع حبائل
الشیطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد . فلما كثر ذلك
وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي ، وأنشد المهدي ما
مدحه به نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب ، وكان المهدي
من أشد الناس غيرة »

قال أبو غسان : « فقلت لأبي عبيدة : ما أحسب شعر
هذا أبلغ في هذه المعاني من شعر كثير وجميل وعروة بن
حزام وقيس بن ذريح وتلك الطبقة ، فقال : ليس كل من
يسمع تلك الأشعار يعرف المراد منها ، وبشار يقارب النساء
حتى لا يتخفى عليهن ما يقول وما يريد ، وأي حرة حصان
تسمع قول بشار فلا يؤثر في قلبها ؟ فكيف بالمرأة الغزلة والفتاة

الى لا هم لها إلا الرجال ؟ ثم أنشد قصيدته :
 قد لامني في خيلتي عمر
 واللوم في غير كنهه ضجر
 إلى قوله :

حسبي وحسب الذي كلفت به
 مني ومنه الحديث والنظر

ثم قواه على لسان صاحبه :
 انهض فما أنت كالذي زعموا
 أنت وري مغازل أشر
 قد غابت اليوم عنك حاضني
 والله لي منك فيك ينتصر

أقسم بالله لا نجوت بها
 فاذهب فأنت المساور الظفر
 كيف بأى إذا رأيت شفتي
 أم كيف إن شاع منك ذا الخبر

إلى آخر القصيدة
 ثم قال أبو عبيدة : بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين
 الصعب «

وفي هذه المساجلة بين أبي غسان وأبي عبيدة (١) مجال واسع للبحث في طريقتي الغزلين العشاق من أمثال كثير وجميل وعروة وقيس وإخوان تلك الطبقة

فهذه المساجلة تبين لنا قبل كل شيء مبلغ الحاجة إلى التفرقة بين هاتين المدرستين ، لالتباس الأمر بينهما حتى على الفحول من الرواة وعلماء الأدب في العصر العباسي كأبي عبيدة وتلاميذه فأبو غسان قد حسب أن الشعر الذي يذكر فيه النساء كله غزل لا فرق فيه بين كثير وقيس وبين بشار ومن حدا حدوه وأبو عبيدة يكاد يماثله في هذا الاعتقاد لأنه حسب أن الخطر من شعر بشار إنما يأتي من فهم النساء شعره وقلة فهمهن أشعار العشاق من أمثال كثير وعروة وقيس وجميل

والواقع غير ذلك كما يتبين من المقابلة بين الطريقتين الواقع أن الخليفة « المهدي » كان أفطن إلى الفرق بين الطريقتين لأنه اعتمد على حسه وعلى المشاهدة ولم يعتمد على العناوين الأدبية التي يعرفها الرواة وعلماء اللغة فيجعلون الغزل كلاماً يتساوى فيه كل شعر يرد فيه التشبيب ووصف الحسان فالمهدي نهى بشاراً عن غزله ولم ينه أحداً عن رواية قصائد العشاق من الشعراء الذين أشرنا إليهم . لأنه أحس الفرق بين

(١) هو معمر بن المثنى من علماء اللغة والأدب في القرن الثالث للهجرة . أول من ألف في البيان، وله فيه كتاب مجاز القرآن ، وقيل إن مؤلفاته تبلغ المائتين .

الشعرين وأدرك على البديهة التي لا تحاول التفسير والتعليل
أن هذا غير ذاك

وليس هذا الفرق على التحقيق أن شعر بشار أسهل لغة أو
أسلوباً من شعر كثير وجميل ، ولا أن بشاراً يقارب المرأة وأولئك
العشاق لا يقاربونها ، فقد تكون قصائد كثير وجميل وأمثالهما
أسهل لغة وأسلوباً من قصائد بشار على الإجمال ، وقد يكون
هؤلاء أقرب منه إلى طبيعة المرأة وهواها وأعرف بغضبها ورضاها
وإنما الفرق بينهما أن شعر بشار هو شعر المتحدثين
والمتحدثات في مجالس اللهو والفراغ ، فهو مادة الحديث في
تلك المجالس ومادة الحديث عنها ، وهو وسيلة الإغراء بها ورسول
الدعوة إليها ، ومن هنا إغراؤه بالفساد ومحاكاة ما يتخيله
ويرويه بين الظرفاء والظريفات

أما شعر كثير وأمثاله فهو كالرسالة الخاصة من رجل
واحد إلى امرأة واحدة ، وهو إن أغرى بشيء فلا يغرى المرأة
بأن تذهب إلى ملاقاته الرجال الكثيرين والنساء الكثيرات ،
ولكنه يغريها بعلاقة قلبية كالعلاقة بين كثير وعزة ، وجميل
وبشينة ، وعروة وعفراء ، وقيس وليلى . وليس هذا ما يدفع
العاشق أو العاشقة إلى مجالس الظرفاء والظريفات ، بل لعله
مما يدفع إلى العكوف والاعتزال

فالفرق هنا فرق بين طبيعتين متباينتين : طبيعة الحب وهو
مخصص لا يعمم ، وطبيعة اللاهية بمجالسة النساء ومحادثتهن وهو

لا يتقيد بواحدة دون غيرها ، ولا يبلغ من التعلق بها إلا أن يؤثرها على الأخريات بالمجالسة والمسامرة وتمثيل مساجلات الغرام وقد كان بشار قريباً في منحاه من عمر بن أبي ربيعة ، لأن المجالس التي كان يغشاها كانت شبيهة على نحو ما بالمجالس التي كان يألفها ابن أبي ربيعة ، غير أن مجالس بشار كانت أشبه بالأندية اللاهية في عصرنا ، ومجالس ابن أبي ربيعة كانت أقرب إلى سهرات الحرير المغلق في العصر الماضي الذي كان يتحلل من الحجاب بعض التحلل في الحلوات وبين الجدران فصاحبات بشار هن الجوارى والقيان والمستهترات باللهو من نساء الحواضر اللاتي لا عاصم لهن ، وصاحبات عمر هن الحرائر اللاتي يفرجن عن أنفسهن في غفلة الرقباء والأولياء ، وهؤلاء في الأدب والنشأة غير هؤلاء ، ولكن الشبه بين الطائفتين أن الحديث معهما حديث شاعر مشغول بالنساء جميعاً وغير مقصور على واحدة بعينها ينخصها بالمناجاة والوفاء

وهنا الملتقى بين ابن أبي ربيعة وبشار

وهنا المفترق بين كل منهما وكل من كثير وعروة وقيس وجميل ، فشعر هؤلاء معدن من الكلام غير المعدن الذي منه كلام الآخرين

ولا يغير من هذه التفرقة أن يقال عن كثير مثلاً إنه كان ينحون عزة ويغازل غيرها ، فإنه قد يفعل ذلك ولا يشبه شعره مع هذا شعر عمر وبشار في المعدن والأثر والطبيعة ، كما أن

الماس المزيف لا يصبح زمرداً ولا مرجاناً ولا ياقوتاً لأنهم زيفوه ،
بل يظل أشبه بالماس من أجل هذا التزييف ، ونراه فنذكر
الماس ولا نذكر الزمرد والمرجان والياقوت إلا انعد أصناف
المعادن المختلفة

وقد نُسبت إلى كثير أبيات تشبه في ظاهرها أن تكون من
كلام الغزلين المكثرين وهي هذه الأبيات :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن
عليك شجى في الحلق حين تبين
وإن هي أعطتك اللبان فإنها
لغيرك من خلالها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدا
فليس لمخضوب البنان يمين

ومهما يكن من صدق النسبة في هذه الأبيات أو كذبها
فالذى يلوح منها أن قائلها أحس شجى الحلق من تقلب
المعشوقة الواحدة وود لو ظفر بالمعشوقة التي لا تتقلب ولا تلين
لغيره كما لانت له ولا تغدر به كما تغدر بسواه ، فعدل إلى
التأسي وهو كاره لهذه المتعة راض بها على غير اختيار لو
ملك الاختيار . وليس هذا مما يقوله الشعراء الغزلون المطبوعون
على التردد بين مجالس النساء الكثيرات ، بل لعله مما يضجرهم ،
ويثقل على طبائعهم أن يطالبوا بالوفاء ويحال بينهم وبين
الثقل في مجالس الحديث واللقاء

وكذلك جاء من أخبار ابن أبي ربيعة أنه علق بامرأة واحدة هي الثريا بنت علي ، وأطال الغزل فيها والتودد إليها وأجفل مما بلغه عرضاً من خبر نعيها ، ولكنه ظل وهو يغازلها ويبادلها المودة عرضة كل يوم لعتاب منها على مغازلة غيرها ومبادلتهن مثل هذه المودة

* * *

وما ينبغي أن نستحضره في هذه المقارنات أنها ليست للموازنة بين شاعرية وشاعرية ، أو بين قدرة فنية وقدرة فنية . فما لا شك فيه أن كثيراً وإخوانه يحسنون أبواباً من القول لا يستطيعها ابن أبي ربيعة إلا أنهم لا يحسنونها لأنهم أشعر منه وأرجح في الملكة الفنية ، فإنه هو أيضاً يحسن أبواباً من القول لا يستطيعونها ولا يلمون بها ، وإنما يحسن كل منهم ما يحسنه لأنه يحسه ويصدق في التعبير عنه والدلالة عليه . فليس للشعراء العشاق قصيدة واحدة تعدل مساجلات ابن أبي ربيعة وحكاياته الغزلية ، لأنهم لا يألون هذا الضرب من الشعور ، ولا يجنحون إلى وصفه والغبطة بتمثيله ، وكذلك تبحث في ديوان ابن أبي ربيعة عن صرخة واحدة من أعماق القلب المصدوع ، والنفس الواهية فلا تظفر بها ولا تحوم حولها . لأنه لم يرزق هذه الطبيعة التي تتعلق بمعشوقة واحدة ، وتعلق عليه سعادتها وشقاءها وإقبالها على الحياة وصدوفها عنها

وما يقال في الفرق بين شعراء الطريقتين يقال في الفرق بين

قراء الطريقتين على نحو واحد ، فالقراء الذين يأنقون للغزل
العمرى يفضلونه على غزل كثير وقيس وجميل ، ولا يعدلون
به شعراً من غير طريقته وغرضه . ويشبههم قراء العشاق
« الموحدين » الذين يحسون إحساسهم وينطبعون على مثل
مزاجهم فلا يرضون بديلاً بشعر أولئك العشاق . إلا أن ينظروا
إلى الطريقتين بعين الفن الخالص فهما إذن متعادلتان حافلتان
بمتعة الجمال وبراعة التعبير ، كما يتبادل مصور الحدائق
ومصور البحار عند من ينظر إلى قدرة التصوير عند هذا وذاك ،
وإن كان هو في طوية نفسه مؤثراً لمناظر الحدائق في الطبيعة
أو مؤثراً فيها لمناظر البحار .

الصدق الفني في شعره

عرضنا فيما تقدم للصدق في شعر ابن أبي ربيعة من الوجهتين
التاريخية والحلقية

والصدق من الوجهة التاريخية هو الصفة التي نتحراها
حين نبحث عن وقوع الأخبار التي رواها الشاعر في أشعاره
القصصية

أما الصدق من الوجهة الحلقية فهو الذي نتحراه حين نبحث
عن دلالة تلك الأخبار على خلقه وأدبه . أهو صادق أم كاذب ،
ومخلص في عقائده الدينية وآدابه الاجتماعية أم موارب فيها ،
وقادر على نفسه أم مستسلم لشهواته وغواياته
وكلتا الوجهتين من صدق التاريخ أو صدق الأخلاق
لا نتعرض له مرة أخرى في هذه الكلمة التي ننظر فيها إلى
صدقه من الوجهة الفنية

فقد يكون الرجل صادقاً فيما روى من أحاديثه
وقد يكون صدقه فيها دالاً على خلق حسن أو معيب
فهذا وذاك غير الصدق الذي يحاسب عليه الشاعر من
الوجهة الفنية ، وهو صدق الشعور الذي يعبر عنه ، وصدور
ذلك الشعور منه عن مزاج أصيل لا تكلف فيه ولا اختلاق

حدث المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال :
 « حججت مع أبي وأنا غلام وعلى جُمة ، فلما قدمت مكة
 جئت عمر بن أبي ربيعة فسأمت عليه وجالست معه ، فجعل
 يمد الحصلة^(١) من شعري ثم يرساها فترجع علي ما كانت
 عليه ويقول : واشباباه ! حتى فعل ذلك مراراً ثم قال لي :
 يا ابن أخي ؛ قد سمعتني أقول في شعري قالت لي وقلت لها ،
 وكل مماوك لي حرّ إن كنت كشفت عن فرج حرام قط .
 فقلت وأنا متشكك في يمينه ، فسألت عن رقيقه فقيل لي :
 أما في الحول (؟) ، فله سبعون عبداً سوى غيرهم »

هذا التشكك جائز - بل واجب - إذا كان الغرض منه
 بحثاً عن تاريخ الوقائع أو بحثاً عن خلق الشاعر وأدبه
 ولكنه فضول لا وجوب له إذا كنا نبحث عن صدقه الفني
 في تعبيره ، فهذا الصدق ثابت له من ثبوت مزاجه وثبوت
 فطرته التي جبل عليها ، وهي الفطرة التي أغرمتها بالنساء والتحدث
 إليهن والتحدث عنهن وتمثيل ذلك في فن من الفنون ، هو هنا
 فن الشعر أو الأقصوصة المنظومة

فهذا المزاج ثابت له لا شك فيه
 وهذا المزاج متى ثبت للشاعر فهو كاف للتحقق من
 صدق تعبيره ولو لم يقع خبر واحد من الأخبار التي نغمها على
 الوجه الذي رواه

(١) ما يجتمع من شعر الرأس .

إذ قصاي الكذب في الخبر أن يكون اختراعاً ملفقاً
يعترف صاحبه بتلفيقه وتأليفه كما يعترف بذلك وُضَاع
الأقاصيص . ومع هذا يؤلف واضع القصة أخباره ولا يمنعه ذلك
أن يوصف بالصدق الفني إذا أحسن الشعور والتخيل وأحسن
إلى جانب هذا تمثيل شعوره وخياله

وهذا هو الصدق الفني الذي عنيناه ، وهو ملازم لشعر
ابن أبي ربيعة في معظم ما وصف ولو اخترعه اختراعاً ، أو
أدخل عليه بعض التبديل والزيادة

ومن أمثلة ذلك أنه وصف منظرآ رآه في بيت فقال :

« ولقد قلت ليلة بالجزل لما

أخضلت ريطى على السماء (١)

فلما أنشد الأبيات خرجت له جارية حضرت المنظر فقالت:
ما رأيت أكذب منك يا عمر ! تزعم أنك بالجزل وأنت في
جنبه (٢) محمد بن مصعب ، وتزعم أن السماء أخضلت ريطتك
وليس في السماء قزعة (٣) ! ... فقال : هكذا يستقيم هذا
الشان «

ونرجع إلى الأبيات التي « استقام له شأنها » بهذا التبديل
فإذا هي بعد البيت المتقدم :

(١) أخضلت بللت والريطة كل ثوب يشبه الملحفة .

(٢) قبه . (٣) القطعة من الغمام .

ليت شعري وهل يردن ليت
 هل لهذا عند الرباب جزاء ؟
 كل وصل أمسى لدى لأنثى
 غيرها ، وصلها إليها أداء
 كل خلق وإن دنا لوصال
 أو نأى فهو للرباب الفداء
 فعدي نائلا وإن لم تنبلي
 إنما ينفع المحب الرجاء

فبدا لنا أن القافية هي التي جاءت « بالسما » وأنه قد خلق
 المطر وابتلال الربطة بعد أن عرضت له هذه الكلمة في القافية ،
 فلم يستقم له النظم إلا بذلك التبديل ، وهو ضعف لك أن
 تحسبه عليه في نقد الصناعة النظمية ، ولكنه لا يمنع أن
 يكون ذلك المنظر جائر الوقوع وأن يأتي وصفه والشعور به على
 ذلك المثال ، وهذا هو الصدق الفني الذي يحاسب به الشاعر
 في هذا الباب ، ولعله يؤدي بتبديله المنظر معنى آخر له دلالة
 في بيان إعزازه للفتاة التي تجشم الخروج في المطر لانتظارها ،
 فذلك معنى يستحق أن يوصف وأن يتخترع اختراعاً في رواية
 من الروايات ، فلا يعاب من الوجهة الفنية أقل عيب ،
 ولا يلام عليه الشاعر إلا إذا أحال في اختراعه فوصف المستحيل
 الذي لا يكون ولا يعقل ، كأن يذكر المطر حيث تمتنع

نزوله كل الامتناع في أوان معهود ، وهو نقص في التخيل
وملاحظة الواقع بمس القدرة الفنية التي لا غنى عنها لأصحاب
الفنون

وبهذا نصل إلى تفرقة أخرى غير التفرقة بين الصدق من
وجهة الفن والصدق من وجهة التاريخ أو الأخلاق

نصل إلى التفرقة بين الطبيعة الفنية والصناعة النظامية ، وإن
لاح أن كلمة الفنان وكلمة الصانع مترادفتان أو كالمترادفتين
فعمر بن أبي ربيعة وافر الحظ من الطبيعة الفنية التي تفوق
على شعرائها وأصبح إمام طريقها

ولكنه ليس بوافر الحظ من الصناعة النظامية التي يلجئه
الضعف فيها إلى التحول عن معناه ، وإن لم يحوِّله عن فطرته
التي لا حول عنها

وخلاصة هذا جميعه أننا نستطيع أن نؤمن بصدق الشاعر
في فنه دون أن نكلفه صحة الواقعة وصحة الصناعة ، بل لعلنا نرفعه
إلى مقام الإمامة بين شركائه في الطريقة والمزاج ، وهو في
تمحيص الخبر أو تمحيص الصناعة وراء هذا المقام .

ذوقه في جمال المرأة

قضى عمر بن أبي ربيعة أكثر أيامه في معايشة النساء ،
ونظم أكثر شعره في وصف محاسن النساء ، فمن الطبيعي أن
يقع في الخاطر أنه كان صاحب ذوق ماثور في جمال المرأة
يسأل عنه من يكتب تاريخه وينقد شعره ويرده إلى مزاجه
وشعوره

والمشهور أن الرجل الذي يخالط النساء يعرف جمالهن
ويصبح حجة فيه ويتذوق من شمائله ما ليس يتذوقه الآخرون
ولكن هذه الشهرة وهم "كسائر الأوهام الشائعة التي تتلقفها
الأسماع ارتجالاً ثم لا تثبت على المراجعة والتحصيل

فلا الرجل « زير النساء » ولا الرجل « العاشق » بالحجة
في ذوق الجمال ، لأن زير النساء موكل بحب الأنوثة في المرأة
ينظر إليها قبل أن ينظر إلى جمالها ، ولأن العاشق موكل بحب
« شخصية » معينة تستهويه كائناً ما كان حظها من الجمال ،
ولهذا يحب المرأة ويؤثرها على سائر بنات جنسها ، وأمام عينيه
منهن من هن أجمل منها وأوفر حظاً من المحاسن والمغريات
مثل الرجل « زير النساء » في هذا مثل الرجل الأكل
يلتهم كل ما صادفه من المأكول فليس هو بالحجة في التمييز

بين الأظعمة والطعوم

ومثل الرجل العاشق في هذا مثل الرجل المولع بصنّف واحد
من المآكل فهو مصدوف عن كل ما عداه ولو كان فيه
ما هو أفضل في التغذية وأمتع في اللذة

فلا هذا ولا ذاك يسأل في صناعة الطهي ومتعة الطعام
وإنما يسأل عنهما الرجل الصحيح الذي يملك ذوقه فلا
يصرفه صارف عن تمييز الحسن السائغ حيث كان
وكذلك يسأل عن جمال المرأة من يرى ويقابل ويستكثر
من الرؤية والمقابلة وهو ناظر في كل ما يراه بعين المساواة والاختبار
وجائز أن يكون زير النساء حجة في ذوق الجمال ، ولكنه
لا يكون كذلك لأنه زير نساء

وجائز أن يكون العاشق حجة في ذوق الجمال ، ولكنه
لا يكون كذلك لأنه عاشق

وإنما يكونان كذلك لملكة فيهما توجد فيمن يخالط النساء
جميعاً وفيمن يعشق المرأة الواحدة كما توجد في غير هذين من
عامة الرجال

فماذا كان ذوق الجمال عند ابن أبي ربيعة شاعر الغزل
وأكثر شعراء عصره مخالطة لبناته الغزلات المشهورات بالجمال ؟
كان ذوقه قبل كل شيء هو الذوق الطبيعي الذي يتفق
لكل من كان مثله في الأصل والنشأة والبيئة

فهو عربي حضري مترف مولع بمعاشرة النساء ، وكل من

كان عربياً حضرياً مترفاً فلن يكون ذوقه في جمال المرأة إلا كذوق عمر بن أبي ربيعة كما رأيناه في شعره وأخباره

فكان ذوق العرب عامة في الجمال ذوق الفطرة السليمة التي لم يفسدها الترف ولم تغيرها بدع الحضارة . وكانوا يستحسنون من جمال المرأة الوضاحة والهييف والرشاقة والخضر ويشيدون بهذه السمائل في كل ما روى عنهم من غزل البداوة ، وكانوا يحبون مع الهييف والرشاقة أن تكون المرأة بارزة النهود والروادف ، وهو ذوق لا يخرج بهم عن سواء الفطرة كما يشبهه لنا حب الجمال وعلم وظائف الأعضاء ، فهم في ذلك أصح ذوقاً من أساتذة التجميل المعاصرين الذين أوشكوا أن يسوا بين قامة المرأة الجميلة وقامة الرجل الجميل في استواء الأعضاء ، فما يعيب المرأة عضويّاً أو « فزيولوجياً » أن تكون رسحاء ضئيلة الردفين ، لأنها خلقت بحوض عريض ملحوظ فيه تكوين الجنين ، فإذا كانت صحيحة البنية سوية الخلق وجب أن تكتسى عظام فخذيها وعجيزتها وأن يمتلئ فيها هذا الجانب من جسمها ، وإلا أشار هزاله إلى آفة في تكوين الجسم لا توافق حاسة الجمال وكذلك يستحسن الحصر الدقيق في المرأة لأن ضخامة المعدة

قد تؤذي الجنين وتضغط عليه في الرحم وتشير إلى التزيد في الطعام فوق ما تستدعيه وظائف الحياة في جسم الإنسان

فالذوق العربي في دقة الحصور وبروز الأرداف ذوق محمود يزكيه حب التنسيق كما يزكيه تكوين وظائف الأعضاء ،

وحمادى الحسن فى المرأة أن تكون كما وصفها كعب بن زهير :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة

لا يشتكى قصر منها ولا طول

وهو الذوق الذى يجرى عليه ابن أبى ربيعة كما يجرى عليه

« العرف القومى » حين يقول :

إنى رأيتك عادة خمصانة ربا الروادف عذبة مبشارا (١)

مخطوطة المتين أكمل خلقها

مثل السبيكة بضعة معطارا

كالشمس تعجب من رأى ويزينها

حسب أغرّ إذا تريد فخارا

أو حين يقول :

أبت الروادف والثدى لقمصها

مس البطون وأن تمس ظهورا

أو حين يقول :

فيهن طاوية الحشا

جيداء واضحة الجبين

بيضاء ناصعة البيا

ض كدرة الصدف الكنين

وكان على فرط معاشرته النساء المتبرجات يحمد الحياء

(١) الخمصانة الدقيقة الحصر ، والريا الممتلئة ، والمبشار حسنة البشرة .

والخضر في المرأة كما يحمدهما العربي البدوي الذي ينظر إلى
المرأة في فطرتها الأولى خفرة بعيدة عن خلق التعرض والاحتحام ،
فيذكر الخضر كثيراً في شعره كما قال وهو نموذج لجميع ما قال :

غراء في غرة الشباب من الحو
ر اللواتي يزينها خضر
تفتر عن بارد مقبله
مفلج واضح له أشر (١)

فالعرف العربي أو العرف الفطري على الأصح الأعم واضح
في وصف ابن أبي ربيعة لا تخطئه في عامة شعره على التقليد
أو على الابتداع ، يستويان

ولكن هذا العرف يطرأ عليه عارضان يغيرانه وينحرفان به عن
قصده، وهما معيشة الحضارة والبيئة الاجتماعية التي كان عمر ينتمي
إليها من تلك المعيشة الحضارية، وهي بيئة الترف والنعمة والرخاء
فالحضارة والنعمة تظهيران في الترف عن عيشة البداوة
والاشتغال برعى الشاء والإبل كما يقول :

معاصم لم تضرب على البهم في الضحى
عصاها ووجه لم تلحه السائم (٢)

وتظهيران في المباهاة بكسل المرأة ونومها إلى الضحى وفرط

(١) الأسنان المفلجة التي بينها فواصل ، والأشرف في الأسنان حدة الأطراف.

(٢) أي لم تغيره رياح السموم .

غضارتها لأن ذلك، جميعه عنوان الغنى والاستغناء والدلال على الرجال ، فإذا ذكر الهيف في جمال المرأة خُيل إليك أنه يذكره متابعة للعرف وعادة من عادات اللسان وهو ساه عن معناه ، وأنه يناقض وصفه حين يذكر الهيف ويقرنه بما ليس يجتمع معه من صفات البدانة والضحامة التي قلما ينساها في وصف حسناء ، كما في قوله :

مهفهة غراء - صفرٌ وشاحها

وفي المرط منها أهيلٌ متراكم

أو قوله :

أسيلات أبدان ، دقاق خصوصها

وثيرات ما التفت عليه الملاحف

أو قوله :

هيف رعابيب بدن شمس

فيهن حسن الدلال والخفر^(١)

وكل نسائه يحلين عنده وصف البدانة التي توشك أن تقعدهن عن الحركة فتعاب وتدخل في عداد العجز وتعب الأعضاء ، كما يقول :

(١) الرعبوب الناعمة والشماس هو الإباء والعناء .

قطوف من الحور الأوانس بالضحى
متى تمش قيس الباع من بهرها تربو (١)
أو يقول :

من البيض مكسال الضحى بحرية
ثقال متى تنهض إلى الشيء تعثر (٢)
وليس أكثر من ذكر البدانة في وصف نسائه ، فهن :
نواعم قُبُّ بدن صُمت البُرى
وعملأن عين الناظر المتوسم (٣)

أو . . .
هيجنى البدن الملاح فما
أنفك بن الحسان أقتصر

وكان اختياره أدل على ذوقه من كلامه ، فقيل إن الثريا
التي لهج بمحاسنها كانت من ضخامة العجيزة بحيث تريق الماء
على جسدها فلا يبتل ظاهر فخذيها ، وهو عيب لم يحمله على
استحسانه إلا ما فيه من دلالة النعمة والوثارة وقلة الحاجة إلى
الحركة في خدمة البيت وطلب المعيشة ، وقيل مثل ذلك عن

(١) ربا الفرس أى انفتح وأدركه الربو . (٢) البحترية المكتنزة
التي فيها قصر . (٣) القباء الضامرة الحصر والبري الجلاخل

عائشة بنت طلحة إذ دخلت عليها زائرة فرأت عجيزتها من
 خلفها كأنها جسد آخر . قالت : فوضعت إصبعي عليها لأعلم
 ما هي ! فلما أحست مس أصبعي سألت : ما هذا ؟ قلت :
 جعلت فداءك . لم أدر ما هو فجئت لأنظر . . . فضحكت
 عائشة وقالت : ما أكثر من يعجب مما عجبت منه !

ووصفتها عزة الميلاء وهي وصافة لمحاسن النساء فقالت :
 ما رأيت مثلها مقبلة ومدبرة ، ثم قالت إنها ذات عكن أي
 طيات في البطن ، ضخمة السرة ، ولم تذكر ذلك من عيوبها
 بل ذكرته من محاسنها . أما عيوبها التي ذكرتها فمنها ما يواريه
 الحمار وهو عظم الأذن ومنها ما يواريه الحف وهو عظم القدم ،
 ومنها ردة في الوجه تغض من الجمال

وهاتان كانتا أجمل الشريقات من طبقة ابن أبي ربيعة
 التي كان يدل عليها بصفات نساءها ، أو يسميها تسمية
 كما قال :

بعيدة مهوى القرط^(١) إما لنوفل

أبوها وإما عبد شمس وهاشم

فهو رجل مطبوع في ذوقه لجمال النساء لأنه يستحسن منه
 ماتوحيه إليه النشأة والبيئة والعرف الشائع بلا تكلف ولا ادعاء
 ومن الملاحظات التي لا تفوت القارئ المستقصى لشعر

(١) القرط ما يعلق في الأذن ، وبعيدة مهواه كناية عن طول الجيد .

الشاعر أنه كان شديد الكلف بجمال الفم خاصة من ملامح
الوجوه ، فندرت قصيدة في شعره خلت من التنويه به والتغنى
بمتعة تقبيله ، كقوله :

فابتسمت عن نير واضح
مفلج عذب إذا قبلا

أو قوله :

ويديقي منه على وجل
عذبا كطعم سلافة الحمر

أو قوله :

فقلت لها حرة عندها
لذيذ مقبلها معصر (١)

أو قوله :

لو سقى الأموات ريقها
بعد كأس الموت لانتشروا

أو قوله :

وبوجه حسن صورته
واضح السنة ذى ثغرى نقى

(١) الفتاة التي بلغت مبلغ النجاء .

أو قوله :

تجرى السواك على أغر مفلج
عذب اللثات لذيد طعم المشرب

أو قوله :

وشتيت^(١) أحوى المراكز عذب

ما له في جميع ما ذيق طعم
وأمثال ذلك في قصائده الوصفية كثير يلاحظ لكثرتة ولا
بد أن يدل على ذوق خاص في استحسان مواضع الحسن من
النساء ، ولنا أن نحسبه دليلاً على التعبير المطبوع دون أن
نبعد في الدلالة ، لأنه كان زير نساء وليس زير النساء الذي
يلقى الكثيرات منهن أن يطمع في متعة أسهل ولا أشبع من الحديث
والتقبيل ، وكلاهما مما يغرى بمحاسن الأفواه ، كما أفصح عن
ذلك في بعض شعره فقال وكرر المعنى كثيراً في أبيات أخرى :
فما ازددت منها غير مص لثاتها وتقبيل فيها والحديث المردد
فلا جرم يكلف الشاعر بمحاسن الثغور التي تشهى منها
الأحاديث والقبل ولا يغفل عن وصفها والتغنى بمتعتها . ومتى
قيل إن عمر بن أبي ربيعة كان يحمد من محاسن المرأة ما
يحمده الرجل الذي نشأ بين العرب في بيئة الحضارة والنعمة ،
وكان بوحى من مزاجه وفراغه مشغولاً بمعاشرة النساء فقد قيل
إنه شاعر صادق الحس مطبوع التعبير .

(١) الشتيت وصفب للأسيان المفلجة أو المتفرقة .

من نوادره وأخباره

بعض النوادر والأخبار يراد لذاته ويحسن السكوت عليه
إذا رويت كل نادرة منه على حدة
ومن ذلك نوادر الفكاهة والنوادر التي تشتمل على خبر
من أخبار المعرفة العامة أو جواب مسكت أو نكتة من نكات
البلاغة

وليس بالضروري أن تكون النوادر والأخبار التي تساق في
معرض التراجم والسير من هذا القبيل
بل يكفي أن تكون النادرة مشتملة على عادة من عادات
المرجم له أو سمة من سماته لتستحق الإثبات والمراجعة ، وهذا
الذي توخينا في سرد ما يلي من النوادر والأخبار ، وكنه من
الأمثلة التي تتكرر في حياة ابن أبي ربيعة وتنبئنا بحالة من
حالاته أو سمة من سماته ، وقد يمر بها القارئ في كتاب
فلا يطيل الالتفات إليها بين النوادر التي تروى ثم يحسن
السكوت عليها .

* * *

فكان عمر يقدم فيعتمر في ذي القعدة ويخرج من إحرامه
فيلبس الحلل والوشى ويركب النجائب المحضوبة بالحناء عليها

الطنافس والديباج ويسبل لمته ويتصدى للعراقيات والمدنيات والشاميات كل منهن في الطريق التي يسلكها ، فخرج يوماً للعراقيات فإذا قبة مكشوفة فيها جارية كأنها القمر تركب معها جارية سوداء كالسبجة^(١) . . . فقال للسوداء من أنت ؟ ومن أين أنت يا خالة ؟ فقالت : لقد أطل الله تعبك إن كنت تسأل هذا العالم : من هم ؟ ومن أين هم ؟ . . . قال : فأخبريني عسى أن يكون لذلك شأن . قالت : نحن من أهل العراق . فأما الأصل والمنشأ فمكة ، وقد رجعنا إلى الأصل ورجعنا إلى بلدنا ، فضحك . فلما نظرت إلى سواد ثنيتيه قالت : قد عرفناك ! عمر بن أبي ربيعة . . . قال : وبم عرفتي ؟ قالت : بسواد ثنيتيك وبهيتك التي ليست إلا لقريش . . . فلم يزل عمر بها حتى تزوجها وولدت له

ولسواد ثنيتيه قصة مع الثريا إحدى صويحباته وأجملهن فيما قيل ، وخلاصتها أنه زارها يوماً ومعه صديق له كان يصاحبه ويتوصل بذكره في الشعر ، فلما كشفت الثريا الست وأرادت الخروج إليه رأت صاحبه فرجعت ، فقال لها : إنه ليس من أحشم منه ولا أخفى عنه شيئاً ، واستلقى فضحك . وكان النساء إذ ذاك يتختمن في أصابعهن العشر ، فخرجت إليه فضربتة بظاهر كفها فأصابته الخواتم ثنيتيه العليين وكادت أن تسقطهما ،

(١) كساء أسود .

فعايلهما في البصرة فسكنتا واسودتا وجعل خصومه يعيرونه بهما
كما قال الحزين الكنانى :

ما بال سنيلك أم بال كسرهما
أهكذا كسرا فى غير ما باس
أم نفة من فناة كنت تألفها
أم نالها وسط شرب^(١) صدمة الكاس

* * *

وكان جالسا بمنى وغلمانه حوله فأقبلت امرأة برزة^(٢) عليها
أثر النعمة ثم سلمت وسألت : أنت عمر بن أبى ربيعة ؟
قال : أنا هو . فما حاجتك ؟ قالت : حياك الله وقرّبك . هل
لك فى محادثة أحسن الناس وجهاً وأتمهم خلقاً وأكملهم أدباً
وأشرفهم حسباً ؟ قال : ما أحبّ إلىّ من ذلك . فعادت تقول :
على شرط . تمكننى من عينيك فأشدهما وأقودك حتى تتوسط
الموضع الذى أريد ثم أفعّل ذلك عند إخراجك حتى أنتهى
بك إلى مضر بك هذا . فوافقها ومضى معها حتى كشفت عن
وجهه فإذا بامرأة على كرسي لم ير مثلها قط جمالا وكمالا ،
فسلم وجلس ، وسأته : أنت عمر بن أبى ربيعة ؟ قال :
أنا عمر . . . قالت : أنت الفاضح للحرائر ؟ قال : وما ذاك

(١) الشرب هم المجتمعون على الشراب .

(٢) البرزة المرأة التى تبرز للرجال .

جعلني الله فداك؟ قالت : ألسنت صاحب هذه الأبيات ؟

قالت : وعيش أخي ونعمة والدي

لأنهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسمت
فعلمت أن يمينها لم تخرج
فتناولت رأسي لتعرف مسه
بمخضب الأطراف غير مشننج
فلثمت فاما آخذاً بقرونها

شرب التزيف ببرد ماء الحشرج (١)

قم فاخرج عني ، وقامت من مجلسها فجاءت المرأة فشددت
عينيه ومضت به حتى انتهى إلى مضربه ، فحزن واكتأب وبات
ليله يفكر فيما رأى وسمع . فلما أصبح إذا المرأة تعود إليه وتسأله :
هل لك في العود ؟ فيذهب معها كما ذهب في المرة الأولى ،
ويلقى فتاة الأمس فتبادره قائلة : إيه يافضاح الحرائر ؟ فيسأل :
بماذا ؟ جعلني الله فداك ؛ فتقول بأبياتك هذه :

وناهدة الثديين قلت لها : اتكى

على الرمل من جبانة (٢) لم توَسد

(١) التزيف من سال دمه أو يبست عروقه من العطش ، والحشرج

نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو أو كوز صغير ، والقرون الضفائر .

(٢) الجبانة الصحراء ،

فقلت : على اسم الله أمرك طاعة
 وإن كنت قد كلفت ما لم أعود
 فلما دنا الإصباح قالت : فضحتني
 فقم غير مطرود ، وإن شئت فازدد

قم فاخرج عني !
 فقام فخرج ثم رده وقال له : « لولا وشك الرحيل وخوف
 الفوت ومحبي لمناجاتك والاستكثار من محادثتك لأقصيتك
 هات الآن كلمني وحدثني وأنشدني »
 قال عمر وهو يقص هذه القصة : « فكلمت آدب الناس
 وأعلمهم بكل شيء ، ثم نهضت وأبطأت العجوز ونحلا لي
 البيت وأخذت أنظر فإذا بآنية فيها طيب ، فأدخلت يدي
 فيه ونجبتها في كمي ، وجاءت تلك العجوز فشدت عيني
 ونهضت بي تقودني حتى إذا صرت على باب المضرب أخرجت
 يدي فضربت بها عليه ، ثم صرت إلى مضربي فدعوت غلمانني
 ووعدتهم أيهم يدل على باب مضرب عليه طيب كأنه أثر
 كف فهو حر وله خمسمائة درهم . فلم ألبث أن جاء بعضهم
 فقال : قم ! فهضت معه فإذا أنا بالكف طرية وإذا المضرب
 مضرب فاطمة بنت عبد الملك بن مروان قد أخذت في أهبة
 الرحيل ، فلما نفرت نفرت معها فبصرت في طريقها بقباب ومضرب
 وهيئة جميلة ، فسألت عن ذلك فقيل لها : هذا عمر بن
 أبي ربيعة . فتخوفت وقالت للعجوز التي كانت ترسلها إلى قولي له :

نشدتك الله والرحم ما شأنك ؟ وما الذي تريد ؟ انصرف !
ولا تفضحني وتشيط بدمك »

قال : فأبلغتني العجوز رسالتها فقلت : لست بمنصرف
أو توجه إلى بقميصها الذي يلي جسدها . ففعلت ووجهت إلى
بقميص من ثيابها ، فزادني ذلك شغفاً ولم أزل أتبعهم ولا
أخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرفت ،
وفي ذلك أقول :

ضاق الغداة بحاجتي صبرى

ويشت بعد تقارب الأمر

إلى آخر الأبيات

* * *

وكان النساء يتعرضن له ويعبثن باستدعائه لتزجية الوقت في
الحديث والمناجاة ، وحكى بعض ما اتفق له من ذلك فقال :
« بينا أنا منذ أعوام جالس إذ أتاني خالد الحرّيت فقال لي :
يا أبا الخطاب ؛ مرت بي أربع نسوة قبيل العشاء يردن موضع
كذا وكذا لم أر مثلهن في بدو ولا حضر ، وفيهن هند بنت
الحارث المريّة . فهل لك أن تأتيهن متنكراً فتسمع من حديثهن
وتتمتع بالنظر إليهن ولا يعلمن من أنت ؟ فقلت له : ويحك !
وكيف لي أن أخفي نفسي ؟ قال : تلبس لبس أعرابي ثم
تجلس على قعود فلا يشعرن إلا بك قد هجمت عليهن .
فعلت ما قال ثم أتيتهن فسلمت عليهن ووقفت بقربهن .

فسألني أن أنشدهن وأحدثهن فأنشدتهن لكثير وجميل والأحوص
 ونصيب وغيرهم . فقلن لي : ويحك يا أعرابي ما أملحك
 وأظرفك ! أو نزلت فتحدثت معنا يوماً هذا فإذا أمسيت
 انصرفت في حفظ الله ؟ فأنخت بعيري ثم تحدثت معهن
 وأنشدتهن فسرون بي وجدلن بقربي وأعجبهن حديثي . . . ثم
 لهن تغامزن وجعل بعضهن يقول لبعض : كأننا نعرف هذا
 الأعرابي ! ما أشبهه بعمر بن أبي ربيعة ! ! فقالت إحداهن :
 هو والله عمر . فمدت يدها فانتزعت عمامي فألقها عن
 رأسي ثم قالت لي : هيه يا عمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم !
 بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه إليك
 لتأتينا في أسوأ هيئة ونحن كما ترى «

* * *

وكان يتتبع كل جميلة يسمع بها ليحادثها ويتغزل بها ولو
 لم تقع عينه عليها

حدث قدامة بن موسى قال : « خرجت بأختي زينب إلى
 العمرة ، فلما كانت بسرف - على عشرة أميال من مكة -
 لقيني عمر بن أبي ربيعة على فرس فسلم علي ، فقلت له :
 إلى أين أراك متوجهاً يا أبا الخطاب ؟ فقال : ذكرت لي
 امرأة من قومي برزة الجمال ، فأردت الحديث معها !
 فقلت : هل علمت أنها أختي ؟ فقال : لا . واستحيا وثني
 عنق فرسه راجعاً إلى مكة .

* * *

وحدث الهيثم بن عدى قال :
 قدمت امرأة مكة وكانت من أجمل النساء ، فبينما عمرُ بن
 أبي ربيعة يطوف إذ نظر إليها فوقع في قلبه ، فدنا منها
 يكلمها فلم تلتفت إليه ، فلما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها
 حتى أصابها ، فزجرته قائلة : إليك عني يا هذا إنك في حرم
 الله وفي أيام عزيمة الحرمه ، فألح عليها يكلمها حتى خافت
 أن يشهرها ، وخرجت بعدها ليلة فقالت لأخيها : اخرج
 معي يا أخي فأرني المناسك فإنى لست أعرفها ، فأقبلت وهو
 معها ، فلما رآها عمر أراد أن يعرض لها فنظر إلى أخيها معها
 فعدل عنها ، فتمثلت المرأة بقول النابغة :
 تعدو الذئاب على من لا كلاب له

وتتقى صولة المستأسد الضارى

فلم يكن صاحبنا بالفاتك في سبيل هواه ، وإنما كان لهواً
 سهلاً يستعين عليه باللهو السهل ، وكثيراً ما كان يتاح له
 حظاه منه بغير عناء كما حدث الهيثم بن عدى مرة أخرى
 حين قال :

بينما عمر بن أبي ربيعة منصور من المزدلفة يريد منى إذ
 بصر بامرأة في رحالة^(١) ففتن بها ، وسمع عجوزاً معها تناديها :
 يا نوار استرى لا يفضحك ابن أبي ربيعة ، فاتبعها عمر

(١) مركب النساء يوضع على البعير .

وقد شغلت قلبه حتى نزلت بمنى في مضرب قد ضرب لها ،
فتزل إلى جنب المضرب ولم يزل يتلطف حتى جلس معها
وحادثها ، وإذا أحسن الناس وجهاً وأحلاه منطقاً ، فزاد ذلك
في إعجاب عمر بها ، ثم أراد معاودتها فتعذر ذلك عليه وكان
آخر عهده ، فقال فيها :

علق النوارَ فؤاده جهلاً
وصبا فلم ترك له عقلاً
إلى آخر الأبيات

* * *

وانتهى بعض هذا اللهو بجد الزواج حين بنى بكلم بنت
سعد المخزومية التي ولدت له ابنه جوان
وكان يهواها وتعرض عنه . فأرسل إليها رسولا فضربت
الرسول وحلقها - أي أوجعتها في حلقها - وأحلفها يمينا ألا
تعاود الرسالة بينه وبينها . ثم أعادها ثانية فصنعت بها ما صنعته
في الأولى ، فتحامها رسله حتى ابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقة
فأحسن إليها وكساها وأنسها وعرفها خبره وقال لها : إن
أوصلت لي رقعة إلى كلم فقرأتها فأنت حرة ولك معيشتك ما
بقيت . فسألته أن يكتب لها مكاتبة بما وعد وأن يلحق بالمكاتبة
حاجته التي يريد ، فأجابها إلى ما سألت وأعطها الورقة
فأخذتها إلى باب كلم واستعانت بإحدى بنات جنسها على

إغراء سيدها بقراءتها فإذا فيها هذه الأبيات :

من عاشق صب يسر الهوى

قد شفه الوجد إلى كظم

رأتك عيني فدعاني الهوى

إليك للحين ولم أعلم

قتلتنا

يا حبذا أنتم

في غير ما جرم ولا مآثم

والله قد أنزل في وحيه

مبيناً في آيه المحكم

من يقتل النفس كذا ظالماً

ولم يقدها نفسه يظلم

وأنت ثأري فتلافي دمي

ثم اجعليه نعمة تنعمي

وحكمي عدلاً يكن بيننا

أو أنت فما بيننا فاحكمي

وجالسيني مجلساً واحداً

من غير ما عار ولا مآثم

ونخبريني ما الذي عندكم

بالله في قتل امرئ مسلم

فلما قرأت الشعر قالت لها : إنه خداعٌ مملق وليس لما

شكاه أصل . قالت : يا مولاتي ! فما عليك من امتحانه ؟

فأذنت له وهي تقول : ما زال حتى ظفر ببغيته ، فليجلس إذا
كان المساء في موضع كذا وكذا حتى يأتيه رسولي ، وجاءها في
الموعد وقد تهيأت أجمل هيئة وزينت نفسها ومجلسها وجلست له
من وراء ستر . وتركته حتى سكن ثم قالت له : أخبرني عنك
يا فاسق ! ألسن القائل :

.....

.....
لا تجعلن أحداً عليك إذا
أحبته وهويته ربا
وصل الحبيب إذا شغفت به
واطو الزيارة دونه غبا
فلذلك أحسن من مواظبة
ليست تزيدك عنده قربا
لا بل يملك عند دعوته
فيقول أف وطالما لي

فاعتذر لها ثم مكث عندها شهراً لا يدري أهله أين هو ،
ثم استأذنها في الخروج فقالت له : بعد أن فضحتني ! لا والله
لا تخرج إلا بعد أن تتزوجني ، فتزوجها وولدت منه ابنتين
أحدهما جوان ، وماتت عنده .

* * *

وتتكرر النوادر والأخبار في حياة ابن أبي ربيعة على أنماط

شئى من نسق واحد هو هذا النسق الذى مثلنا له بما تقدم ،
ولكنها تلخص فى ختامها بخبرين مختلفين فى تشابه أو متشابهين
فى اختلاف ، هما إجمال ذلك الإسهاب فى نهاية المطاف

قال مصعب بن عروة بن الزبير : خرجت أنا وأخى عثمان
إلى مكة معتمرين أو حاجين ، فلما طفنا بالبيت مضينا إلى الحجر
نصلى فيه ، فإذا شيخٌ قد خرج بينى وبين أخى فأوسعنا له ،
فلما قضى صلاته أقبل علينا فسألنا : من أنتم ؟ فأخبرناه ،
فرحب بنا وقال : يا ابنى أخى ، إني موكل بالجمال أتبعه ،
وإني رأيتكما فراقى حسنكما وجمالكما ، فاستمتعا بشبابكما قبل
أن تندما عليه . ثم قام فسألنا عنه فإذا هو عمر بن أبى ربيعة
ويلحق بهذا الخبر ما ذكره ابن الكلبي حيث قال : إن
عمر بن أبى ربيعة كان يساير عروة بن الزبير ويحادثه فقال
له : وأين زين المواكب ؟ يعنى ابنه محمداً وكان يسمى
بذلك لجماله ، فأجابه عروة : هو أمامك ، فركض يطلبه
وعروة يقول له : يا أبا الخطاب أو لسنا أكفاء لمحادثتك
ومسايرتك ؟ قال : بلى بأبى أنت وأمى ، ولكنى مغرى بهذا
الجمال أتبعه حيث كان

إنى امرؤ مولع بالحسن أتبعه

لا حظ لى منه إلا لذة النظر

ثم مضى حتى لحقه

هذا أحد الخبرين المتشابهين المختلفين

والخبر الآخر أنه نظر وهو شيخ إلى رجل في الطواف يكلم امرأة ، فعاب ذلك عليه وأنكره ، فقال له : إنها ابنة عمي ! . . . قال : ذلك أشنع لأمرك . فأنبأه أنه خطبها إلى عمه فأباها عليه إلا بصداق أربعمئة دينار وهو غير مطيق لهذا الصداق ، وشكا إليه من حبها وكلفه بها أمراً عظيماً ، واستشفع به عند عمه فسار معه إليه وكلمه فقال العم : هو مملق وليس عندي ما أصلح به أمره . فسأله عمر : وكم الذي تريده منه ؟ فلما سمع منه أنه أربعمئة دينار تكفل بها وترك الرجل بعد أن قبل زواج الفتيتين . وكان عمر حين أسنّ قد حلف ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة ، فانصرف يوماً إلى منزله يحدث نفسه ، وجعلت جارية له تكلمه فلا يرد عليها جواباً ، فقالت له : إن لك لأمرأ وأراك تريد أن تقول شعراً ، فجرى لسانه بهذه الأبيات :

تقول وليدتي لما رأيتي
 طربت وكنت قد أقصرت حيناً
 أراك اليوم قد أحدثت شوقاً
 وهاج لك الهوى داء دفيناً
 وكنت زعمت أنك ذو عزاء
 إذا ما شئت فارقت القريناً
 بربك هل أتاك لها رسول
 فشاقتك أم لقيت لها خديناً

فقلت شكاً إلى أخ محب
 كبعض زماننا إذ تعلمينا
 فقص على ما يلقي بهند
 فذكر بعض ما كنا نسينا
 وذو الشوق القديم وإن تعزى
 مشوق حين يلقي العاشقينا
 وكم من نخلة أعرضت عنها
 لغير قلبي وكنت بها ضنيننا
 أردت بعادها فصدت عنها
 ولو جنُّ الفؤاد بها جنونا

ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم واحداً لكل بيت
 هذان الخبران مختلفان ويتشابهان في تصوير ختام هذا العمر
 المديد الذي قيل إنه بلغ الثمانين ، فلم يزل عمر في شيخوخته كما
 كان في صباه ، ولم يعرض عن حظ الشباب والجمال إلا
 على كره منه وحين يعاوده كلما تناساه أو حاول أن يتناساه .

بعض شعره

تتلخص أغراض المنتخبات الشعرية في ثلاثة : أحدها أن نختار للشاعر ما ينبيء عن حاله وله فائدة في التعريف بحقيقته النفسية ، أو بحقيقة عصره وسيرة حياته

وثانيها أن نختار له الحسن من شعره ، وإن لم ينبيء عن شيء من سيرته وخلقه

وثالثها أن نختار له ما هو حسن مستجاد من الوجهة الفنية سواء نظرنا إليه ، أو نظرنا إلى الحسن المستجاد من أقوال جميع الشعراء . فهو فن حسن في الشعر عامة ، وليس حسنه بمقصود على ما قاله الشاعر المختار له على التخصيص

وقد حاولنا أن نوفق فيما اخترناه هنا بين جميع هذه الأغراض جهد ما استطاع التوفيق بينها في كلام شاعر واحد ، وهو مع هذا لا يستقصى كل جيد مختار من كلام ابن أبي ربيعة ، ولكنه الشيء الذي لا غنى عنه في عجالة تتناول سيرته وأدبه ومكانته ، بين أئمة الكلام ، بعد ما أسلفنا اقتباسه خلال الفصول المتقدمة من هذه العجالة :

« ليلة خطيرة »

.....

وبت أناجى النفس أين خباؤها (١)
 وكيف لما آتى من الأمر مصدر

فدل عليها القلب رياء (٢) عرفها
 لها ، وهوى النفس الذى كاد يظهر

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت
 مصابيح شبت بالعشاء وأنور

وغاب قُميرٌ كنت أرجو غيوبه
 وروح رعيان ونوم سمر (٣)

وُخفف عنى الصوت أقبات مشية الـ
 حجاب وشخصى خيفة القوم أزور (٤)

(١) الحياء الخيمة أو المسكن من الصوف أو الشعر . (٢) الرياء الرائحة .

(٣) السمر جمع سامر وهو من يجتمع بالليل للحديث . (٤) أزور أى

يمشى منحرفاً والحجاب الحية .

فحييتُ إذ فاجأتها فتولت
وكادت بمكنون التحية تجهر

وقالت وعضت بالبنان : فضحتني
وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

أريتك إذ هُنا عليك ألم تخف
رقيباً ، وحولى من عدوكُ حضر

فوالله ما أدري أتعجيل حاجة
سرت بك أم قد نام من كنت تحذر

فقلت لها : بل قاذى الشوق والهوى
إليك ، وما عين من الناس تنظر

فقالته وقد لانت وأفرخ روعها : (١)
كلاك (٢) بحفظ ربك المتكبر

فأنت - أبا الخطاب - غير منازع
على أمير كيف شئت مؤمر

فبت قرير العين أعطيت حاجتي
أقبل فاها في الخلاء فأكثر

(١) أى ذهب خوفها . (٢) كلاك أى كلاك بمعنى رعاك .

فيا لك من ليل تقاصر طوله
وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

ويا لك من ملهى هناك ومجلس
لنا لم يكدره علينا مكدر

يمج ذكى المسك منها مفلج
رقيق الحواشى ذو غروب مؤثر^(١)

يرف إذا يفتر عنه كأنه
حصى برد أو أقحوان منور

وترنو بعينها إلى كما رنا
إلى ربرب وسط الحميلة جؤذر^(٢)

فلما تقضى الليل إلا أقله
وكادت توالى نجمة تتغور

أشارت بأن الحى قد حان منهم
هبوب، ولكن موعد لك عزور^(٣)

(١) المفلج هو الفم الذى فى أسنانه تفرق ، والغروب جمع غرب وهو الحد ، والمؤثر أى المحرز .

(٢) الجؤذر ولد البقرة الوحشية ، والربرب قطع البقر الوحشى .

(٣) اسم موضع .

فما راعني إلا مناد برحلة
وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر

فلما رأت من قد تشور منهم
وأيقاظهم قالت : أشر كيف تأمر

فقلت : أباديهم فيما أفوتهم
وإما ينال السيف ثاراً فيثار

فقلت أتحقيقاً لما قال كاشح
علينا ، وتصديقاً لما كان يؤثر

فإن كان ما لا بدء منه فغيره
من الأمر أدنى للخفاء وأستر

أقص على أختي بدء حديثنا
وما لي من أن تعلمتا متأخر

لعلهما أن تبغيا لك مخرجاً
وأن ترحبا سرباً بما كنت أحصر (١)

فقامت كئيباً ليس في وجهها دم
من الحزن تدرى عبرة تتحدر

(١) السرب النفس والمعنى لعل أختي تتسعان صدرأ لما ضاقت حيلتي فيه .

وقامت إليها حرتان عليهما
كساءان من خز ديمقس وأخضر^(١)

فقال لأختيها : أعينا على فتي
أتى زائراً والأمر للأمر يقدر

فأقبلتا فارتاعنا ثم قالتا :
أقلى عليك اللوم فالخطب أيسر

فقال لها الصغرى : سأعطيه مطرفي
ودرعى وهذا البرد إن كان يحذر^(٢)

يقوم فيمشى بيننا متنكراً
فلا سرّنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجنى دون ما كنت أتقى
ثلاث شخوص كاعبان ومعصر^(٣)

فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى :
أما تتقى الأعداء والليل مقمر

(١) الخز الحرير ، والديمقس الأبيض منه . (٢) درع المرأة قميصها

تلبسه في بيتها والمطرف رداء معلم الطرف .

(٣) المعصر الفتاة أدركت من الأنوثة ، والكاعب التي برز نهدها ،

والجبن الترس .

وقلن : أهذا دأبك العمر سادراً ؟
أما تستحي أو ترعوى أو تفكر (١)

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

فآخر عهد لي بها حين أعرضت
ولاح لها خدني ومحجر

« وليلة غير خطيرة ؟ »

قد عرفت القبول منها لعنري
إذ رأيتني منها أريد اعتذارا

ثم قالت وسأحت بعد منع
وأرتني كفاً تزين السوارا

فتناولتها فالت كغصن
حركته ربح عليه فحارا

وأذاقت بعد العلاج للذيذا
كجني النحل شاب صرفاً عقاراً (٢)

(١) سادراً أي لاهياً غافلاً .

(٢) العقار الحمر وجني النحل العسل .

واشتكت شدة الإزار من البُهر
وألقت عنها لدى الحمارا^(١)

حبذا رجمها إليها يديها
في يدي درعها تحل الإزارا

« حد السر »

السر يكتمه الاثنان بينهما
وكل سر عدا الاثنين منتشر
والمرء إن هو لم يرقب بصبوته
لمح العيون بسوء الظن يشهر

« اتفاق نادر »

ذات حسن إن تغب شمس الضحى
فلنا من وجهها عنها خاف
أجمع الناس على تفضيلها
وهوهم في سوى هذا اختلف

(١) الحمار ما يستر الرأس وكل ما يستر على العموم ، والبهر انقطاع

التف من التعب .

« عمر فوق كل شيء »

.....
.....

وأنها حلفت بالله جاهدة
وما أهل له الحجاج واعتصروا^(١)
ما وافق النفس من شيء تسرّ به
وأعجب العين إلا فوقه عمر
فذاك أنزلها عندي بمنزلة
ما كان يحتلها من قبلها بشر

« الشهادة المقبولة ! »

يا قضاة العباد إن عليكم
في تقي ربكم وعدل القضاء
أن تجيزوا وتشهدوا لنساء
وتردوا شهادة لنساء

(١) اعتمر قصد الحج ، وأهل ذكر الله عند ذبح الضحية .

فانظروا كل ذات بوص رَداح
فأجيزوا شهادة العجْزاء (١)

ليت للريح (٢) قرية هن فيها
ما دعا الله مسلم بدعاء

ليس فيها خلأطهن سواهن
بأرض بعيدة ونخلأء

عجل الله قطعهن وأبى
كل خود خريدة قباء (٣)

تعقد المرط فوق دعص من الر
مل عريض قد حُف بالأنقاء (٤)

« زعموا وزعم »

زعموا أنى بغيرك صب
جعل الله من أحب فداكا

-
- (١) العجْزاء عظيمة العجيزة وكذلك ذات البوص والرداح الممتلئة .
(٢) الريح جمع ريماء وهي صغيرة الردين .
(٣) القباء دقيقة الحصر والخريدة الحية من النساء والخود المرأة الشابة .
(٤) الدعص والنق مجتمع الرمل .

فلو أن الذي عتبت عليه
 خيّر الناس واحداً ما عدا كما
 ولو استطاع أن يقيك المنايا
 غير غبن بنفسه لوقا كما

« حب أشمط »

استقلوا ودموعي
 قد أربت بأنهمال^(١)
 من هوى خود لعوب
 عادة مثل الهلال
 أشبه الخلق جميعاً
 حين تبدو بالمثل
 إنما ألوت بعقلي
 بعد حلم واكتمال
 حين لاح الشيب منى
 في شواتي وقذالي^(٢)

(١) استقلوا حملوا متاعهم للسفر وأربت السحابة دام مطرها .

(٢) الشواة جلدة الرأس والقذال مؤخرته .

أيها الناصح ! قبلي
فتنت شمط الرجال (١)

فقؤادي من هواها
هائم أخرى الليالي

« المنبر أخيراً . . . »

وأين الغواني الشيب لإح بعارضي
فأعرضن عني بالحدود النواضر

وكن إذا أبصرني أو سمعني
سعين فرقعن الكوى (٢) بالمحاجر

فإن جمحت عني نواظر أعين
رمين بأحداق المها والحدائر

فإني لمن قوم كريم نجارهم
لأقدامهم صيغت رؤوس المنابر

(١) الأشمط الذي اختلط البياض والسواد في رأسه .

(٢) جمع كوة وهي الحرق في الحائط .

« بصر مغطى »

قالت وأبشثها حبي وبحت به :
قد كنت عندي تحب الستر فاستتر

ألست تبصر من حولي؟ فقلت لها :
غطى هواك وما ألقى على بصري

« مقايضة »

بنفسى من شفى حبه
ومن حبه باطن ظاهر

ومن لست أصبر عن ذكره
ولا هو عن ذكرنا صابر

ومن إن ذكرنا جرى دمه
ودمعى لذكرى له مائر

ومن أعرف الود فى وجهه
ويعرف ودى له الناظر

« الأقربون أولى »

حي طيفاً من الأعبة زارا
 بعد ما صرع الكرى السُمّارا
 طارقاً في المنام تحت دجى اللي
 ل ضنيناً بأن يزور نهارا
 قلت : ما بالنا جُفينا وكنا
 قبل ذاك الأسماع والأبصارا
 قال : إنا كما عهدت ولكن
 شغل الحلى أهله أن يعارا

« نصح ضائع »

زع^(١) القلب واستبق الحياة فإنما
 تباعد أو تدنى الرباب المقادر

(١) الوازع : الناهى .

فإن كنتُ علقتُ الرباب فلا تكن
أحاديث من يبدو ومن هو حاضر

أمت حبا واجعل قديم وصالها
وعشرتها أمثال من لا تعاشر

وهبا كشيء لم يكن أو كنازح
من الدار أو من غيبته المقابر

فإن أنت لم تفعل ولست بفاعل
ولا قابل نصحاً لمن هو زاجر

فلا تفتضح عيناً . أتيت الذي ترى
وطاوعت هذا القلب إذ أنت سادر

وما زلت حتى استنكر الناس مدخلي
وحى تراءتني العيون النواظر

« شراب شاف »

كيف اصطباري عن فتاة طفلة
بيضاء في لون لها ذى زبرج^(١)

(١) الزبرج : الزخرف والذهب .

نافت على العذق^(١) الرطيب بريقتها
وعلى الهلال المستبين الأبلج

لما تعازم أمر وجدى فى الهوى
وكلفت شوقاً بالغزال الأدهج^(٢)

فسريت فى ديجور ليل حندس
متنجداً بنجاد سيف أعوج^(٣)

فعدت مرتقباً ألم بيتها
حتى ولجت به خفى المولج

حتى دخلت على الفتاة وإنما
لتحط نوماً مثل نوم المنهج^(٤)

فوضعت كفى عند مقطع خصرها
فتنفست نفساً فلم تنهج

(١) العذق الغصن ذو الشعب .

(٢) العين الدهجاء شديدة البياض وشديدة السواد .

(٣) النجاد حمائل السيف ، والحنديس الظلام الخالك .

(٤) تحط نوماً أى تسرع فى النوم والمنهج التعب المهوك ، وفى رواية

« المنهج » أى السرور الطيب الحاطر .

فلزمتها فلثمتها ففتزعت
 منى وقالت : من ؟ فلم أتجلجج
 قالت : وعيش أبي وحرمة إخوتي
 لأنبهن الحى إن لم تخرج
 فخرجت خوف يمينها فتبسمت
 فعلمت أن يمينها لم تخرج
 فتناولت رأسى لتعلم مسه
 بمخضب الأطراف غير مشنج
 فلثمت فاها آخذاً بقرونها
 شرب التزيف ببرد ماء الحشرج (١)

« حبذا »

ألا حبذا حبذا حبذا
 حبيب تحملت منه الأذى

(١) الحشرج النقرة في الجبل ، والتزيف المجروح الذى أهلكه الظما .

ويا حبذا برد أنيابه
إذا أظلم الليل واجلوذا (١)

« أكبر الكبائر »

إن من أعظم الكبائر عندي
قتل حسناء عادة عطبول

قتلت باطلا على غير ذنب
إن لله درها من قتيل
كتب القتل والمقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذبول (٢)

« مفتون فاتن »

وغضيفن الطرف مكسال الضحى
أحور المقلة كالرثم الأغن

(١) امتد .

(٢) العطبول الفتاة الجميلة طويلة العنق ، وهذه الأبيات قيلت في مقتل

عمرة بنت النعمان لآتهامها بالدعوة إلى نبوة المختار بن أبي عبيد الثقفي .

مر بي في نفر يحفنه

مثل ما حف عباد بوثن

راعى منظره لما بدا

ربما أرتاع بالشيء الحسن

قلت : من هذا ؟ فقالت : بعض من

فتن الله بكم فيمن فتن

قلت : حقاً ذا ؟ فقالت قولة

أورثت في القلب همًا وشجن

يشهد الله على حبي لكم

ودموعي شاهد لي والحزن

قلت : يا سيدتي عذبتني

قالت اللهم عذبتني إذن !

« معالم الطريق »

إن لي عند كل نفحة ريحا
 ن من الورد أو من الياسمينا
 نظرة والتفماتة أترجى
 أن تكوني حلت فيمن يلينا

« اختصار ! »

جعلت طريقى على بابكم
 وما كان بابكم لي طريقا
 صرمت الأقارب من أجلكم
 وصافيت من لم يكن لي صديقا

« على سنة الناس »

أراني وهنداً أكثر الناس قالة
 علينا وقول الناس بالمرء يلحق

فإن نحن جئنا سنة لم تكن مضت

فنحن إذن مما يقولون أخرق

وإن كان أمراً سنة الناس قبلنا

فقيم مقال الناس فينا : تفرقوا

أحق بأن لم تهو غانية في

وأن أناساً لم يحبوا ويعشقوا

« ولو في الطريق »

أحب لحب عبلة كل صهر

علمت به لعبلة أو صديق

ولولا أن تعنفني قريش

وقول الناصح الأذنى الشفيق

لقلت إذا التقينا قبلي

ولو كنا على ظهر الطريق

فما قلب ابن عبد الله فيها
بصاح في الحياة ولا مفيق

« زينبه وعمرها »

بعثت وليدتي سحراً
وقلت لها خذي حذرك

وقولي في ملاطفة
لزينب : نولي همرك

فإن داويت ذا سقم
فأخزي الله من كفرك

فهزت رأسها عجباً
وقالت : هكذا أمرك؟!

أهذا سحرك النسوا
ن قد خبرني خبرك

وقلن : إذا قضى وطراً
وأدرك حاجة دجرك

« وهل يخفى ؟ »

قلن يسترضينا : مُنبتنا
لو أتانا اليوم في سر عمر
بينما يذكرني أبصرني
دون قيد الميل يعدو بي الأغر
قلن تعرفن الفتي قلن نعم
قد عرفناه وهل يخفى القمر
ذا حبيب لم يعرج دوننا
ساقه الحين إلينا والقدر
فأتانا حين أتى بركه
جمل الليل عليه واسبطر^(١)

(١) اسبطر انتشر وجعل الليل جملاً بركه على الدنيا فقطها .

ورضاب المسك من أثوابه
مرمر الماء عليه فنصر

« في المسجد »

لقيته صاحبتة في المسجد ينظر إلى نساء وفي يدها خلوق ،
أى طيب ، من خلوق المسجد ، فمسحت به ثوبه ومضت
تضحك فقال :

أدخل الله رب موسى وعيسى
جنة الخلد من ملائى خلوقا

مسحته من كفها بقميصى
حين طافت بالبيت مسحاً رقيقا

غضبت أن نظرت نحو نساء
ليس يعرفنى مررن الطريقا

وأرى بينها وبين نساء
كنت أهذى بهن بوناً سحيقا

« في الحلم »

أيا من كان لي بصراً وسمعاً
وكيف الصبر عن بصرى وسمعى

يقول العاذلون نأت فدعها
وذلك حين تهبامى وولعى

أهجرها وأقعد لا أراها
وأقطعها وما همت بقطعى

وأقسم لو حلمت بهجر هند
لضاق بهجرها في النوم ذرعى

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤